إدارة النجاح

تأليف

اللورد بيفر بروك

ترجمة

أنبي رزق

تقديم وتحرير

حازم عوض

الكتاب: إدارة النجاح

الكاتب: اللورد بيفر بروك

ترجمة: أنبي رزق

تقديم وتحرير: حازم عوض

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** **info@bookapa.com**

APA

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بروك، بيفر

إدارة النجاح / اللورد بيفر بروك، ترجمة: أنبي رزق، تقديم وتحرير: حازم عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

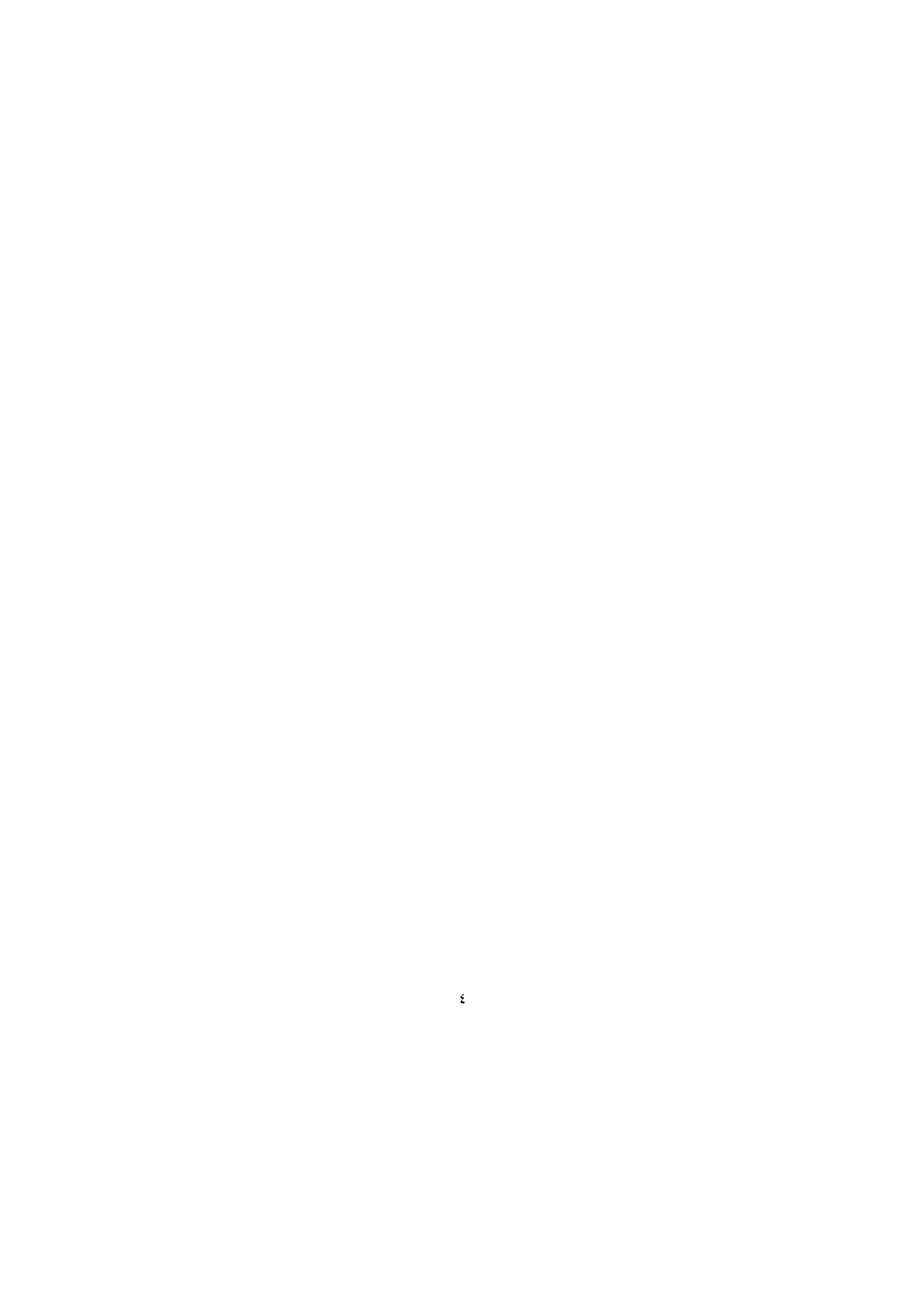
١١٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٠٣٧ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢٠٩٠٧ / ٢٠٢٠

إدارة النجاح





مقدمة

قال توماس أديسون: "كثير من حالات الفشل في الحياة كانت لأشخاص لم يدركوا كم كانوا قريبين من النجاح عندما أقدموا على الاستسلام".

تشير هذه المقولة إلى عاملين مهمين من عوامل الفشل وهما قلة الصبر، وقبلها عدم وضوح الهدف في ذهن صاحبه، إذ يكمن تحقيق الأحلام في مدى وضوح الصورة المرسومة في مخيّلة الإنسان عن مستقبلهِ، فتحقيق الأحلام لا يحتاج إلى قوة الإرادة فقط، أو امتلاكه مجموعة من المهارات بل تكمن القوة في تحقيق أحلام الفرد بذاته، فإذا استطاع الإنسان أن يُعطي لنفسه الصورة المستقبليّة التي سيكون عليها يوماً ما فإنّه سيحصل على النتائج التي يتمنّاها.

كذلك فالأهداف العامة، والأحلام غير واضحة المعالم يصعُب على الإنسان تحقيقها، وبالتالي يصعُب عليه أيضاً تحديد الاتجاه والمسار الذي يسلكه؛ فإذا حدّد الإنسان هدفه بدقةٍ فقد وضع نفسه على بداية طريق النجاح.

أيضا من أهم مفاتيح النجاح التي على الفرد التحلّي بها هي الصبر؛ فالوصول إلى النجاح غالباً ما تكون فيه العقبات الكثيرة، والتحدّيات

العديدة، وإذا لم يتحلّ الإنسان بالصبر فإنّه لن يستطيع أن يتخطّى هذه الصعاب، وقد يضطرّ للتنازل عن الأهداف التي تمنّى تحقيقها منذ سنوات.

وثمة أسباب ووسائل كثيرة تباعد ما بين الإنسان والفشل، وبالتالي تضعه على طريق النجاح، هذه الأسباب فصلها اللورد بيفر بروك في كتابه "النجاح" وقبل أن نتحدث عن الكتاب يجدر أن نتمهل قليلا ونستطرد في سيرة صاحبه، وأعتقد أن ذلك أمر ضروري لأنه سيكسب الكتاب مصداقية كبيرة ويثبت أن ما به من أفكار ليست كلاما مرسلا بل حصيلة خبرة حياتية كبيرة ومميزة.

قصة نجاح

اللورد بيفر بروك هو الإسم الذي اشتهر به الكندي/ البريطاني "ويليام ماكسويل آيتكين"، ولد في الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٨٧٩، في مدينة نيو برونزويك، بنيوكاسل الكندية، وكان ابنا لقس بروتستانتي فقير، وكان ينتمي لطائفة مهمشة، فقد كان من أتباع كالفن، والكالفنية لم تكن فقط مهمشة بل كانت قليلة الأتباع جدا.

وحدث أن رغب ويليام ماكسويل في اقتناء دراجة، وكان يومها في العاشرة من العمر، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية للأسرة تسمح بتلبية تلك الحاجة، وبالصدفة قرأ في جريدة محلية إعلانا عن إحدى شركات انتاج الصابون، وقد أعلنت تلك الشركة عن جائزة دراجة تقدمها لمن يرسل إليها أكبر عدد ممكن من أغلفة قطع الصابون الذي تنتجه، لم

يفكر الصبي في مطالبة الأقارب والجيران بشراء هذا النوع من الصابون، ولكن فعل شيئا آخر.

قام الصبي بشراء صناديق من ذلك الصابون بكل النقود التي ادخرها، وقام ببيعها بثمن مخفض مقابل أن يرد إليه المشترى الغلاف الورقي لقطعة الصابون، ولما أتم البيع قام بشراء عدد آخر من صناديق الصابون وباعها بنفس الطريقة، وهكذا ظل يكرر تلك العملية حتى فاز بالدراجة التي أعلنت عنها الشركة، وبالطبع كان ثمنها يبلغ أضعاف التخفيضات التي منحها لمن اشترى منهم مقابل حصوله على الأغلفة الورقية، وكان ذلك هو أول نجاح له في مجال التجارة.

بعدها عمل في إحدى الصيدليات في مجال تنظيفها ومساعدة صاحبها في توصيل الأدوية لمن يطلبها وفي إحضار المشتريات التي يريدها، ولما التحق بجامعة نيو برونزويك ليدرس العلوم القانونية في كلية سانت دي جوان، ترك الصيدلية والتحق بالعمل بأحد مكاتب المحاماة، فجمع بين العمل والدراسة لينفق على نفسه، وحدث أن نظمت الكلية حفلا اجتماعيا وتوقع أن تتم دعوته إليه، ولم يكن لديه الزي اللائق بهذه المناسبة فاستأجره من أحد محال بيع وتأجير الملابس، لكنه لم يتمكن من حضور الحفل لأن أحدا لم يهتم بتوجيه الدعوة له، يومها رد البدلة المستأجرة وهو حزين، لكنه قرر أن يكون غنيا حتى لا يهمله أو يستهين به أحد.

أما التجربة الأهم في حياة بارون الصحافة الشهير فتمثلت في بيع

الصحف، فقد عمل بائعا جوالا للصحف في مدينته، واستغل مكاسبه من هذا العمل في تأسيس صحيفته الخاصة، اختار لها إسم "ذي ليدر" أو "القارىء" وكان يقوم بتحريرها بنفسه عن طريق صياغة ونشر الأخبار المحلية والعالمية التي تصل إلى أسماعه خلال قيامه بالتجول أثناء بيع الصحف.

ليس ذلك فقط بل قام بصف حروفها بنفسه، وطبعها بواسطة طابعة بدائية كانت تدار باليد، وهكذا بدأ ممارسة الصحافة والتجارة والسياسة معا، ونجح فيها جميعا فقرر الهجرة إلى المملكة المتحدة ليغير من حياته تماما، وهكذا حط الرحال بمدينة لندن في عام ١٩١٠، وعمل صحافيا، كما عمل في شركات الأسمنت، وفي ١٩١٥ عمل مراسلا عسكريا خاصا للحملة العسكرية الكندية، وفي عام ١٩١٦ كان ممثلا للحكومة الكندية في الجبهة، وفي ١٩١٧ أصبح مسئولا عن السجلات العسكرية الكندية.

وقد كان حريصا على ألا تنقطع صلته بالصحافة ولا بالتجارة فاشترى في عام ١٩١٧ جريدة "دايلي إكسبريس" وكانت في ذلك الوقت أوسع الصحف البريطانية انتشارا، وبعدها اشترى جريدة "ذا إيفننج ستاندارد"، وفي عام ١٩١٨ تم تعيينه وزيرا للإعلام في الحكومة الكندية، وظل به لسنوات حتى عاد للصحافة ولانجلترا، لكنه مع نشوب الحرب العالمية الثانية عاد إلى كندا وتقلد أكثر من منصب وزاري منها وزير انتاج الطائرات في عام ١٩٤٠، ثم وزير التموين في ١٩٤١، كما عمل حاملا لأختام الملك خلال الفترة من ١٩٤٣ وحتى ١٩٤٥.

وخلال هذه السنوات أصدر بروك عددا من الكتب في السياسة وفي الاقتصاد وفي الإعلام منها "الصحفيون والسياسة" و "الصحفيون والحرب" و "ثروات الإمبراطورية البريطانية"، أما كتاب "النجاح" الذي نعيد نشره، فقد صدرت طبعته الأولى في لندن في عام ١٩٢١، وبعدها تعددت طبعاته وترجماته في أغلب دول العالم.

كتاب"إدارة النجاح" كان في الأصل مقالات متفرقة كان اللورد بيفر بروك ينشرها بشكل أسبوعي في جريدة الصنداي اكسبريس، ولاقت اهتماماً كبيراً، فكان توزيع الصحيفة يتضاعف في اليوم الذي يولفق موعد نشر مقالة بروك، لذا قرر جمعها ونشرها في كتاب.

وعن ذلك يقول المؤلف " المقالات التي يحتويها هذا الكتاب قمت بكتابتها أثناء تراكم أعمالي الكثيرة، ولم تكن لدي أي فكرة عن جمعها في كتاب كهذا، لذا يستطيع من أراد الانتقاد أن يجد هنا أو هناك تكراراً للفكرة الرئيسية، ومع ذلك فهذا برهان على وحدة الرأي الذي يبرر جمعها".

وفي الكتاب يقول اللورد بيفر بروك "الصفات التي تأتي بالنجاح ثلاث هي: الرأي والعمل والصحة"، وهذا يعني أن من يصبو إلى النجاح يجب أن يتصف بصفات ثلاث هي العقل السليم، والصحة الجيدة، والميل إلى النشاط، فإذا اجتمعت الصفات الثلاث في نفس الشخص فنجاحه يكون مضمونا بحسب بروك، وإذا توافرت صفتان فقط فالنجاح يتحقق ببذل المزيد من الجهد، أما صفة واحدة فلا تكفي، وافتقاد الثلاث معا يعني ضمان الفشل".

وكان يرى أن هذه الصفات الثلاثة تتوقف كثيراً على صفة رابعة وهي "ضبط النفس" أو "الاعتدال"، فالناجحون هم أولئك الذين اعتدلوا في أمورهم وحاسبوا أنفسهم بدقة.

وعلى هذه الدعائم الأربعة يقوم هيكل النجاح المشيد فوق أعمدة الصحة والعمل والرأي يقف بجواره هيكل آخر يحتجب خلف ستائره سر السعادة، أي أن النجاح هو ما يحقق السعادة، وهي النعمة التي لا يمكن أن يستشعرها الفاشلون.

ويذهب بروك إلى أن النجاح مثله كمثل أي من الأعمال البشرية، فهو مسألة ترجع جزئياً إلى الاستعداد وجزئياً إلى حرية الإرادة، فإنك لا تستطيع أن تخلق الذكاء ولكن يمكنك ترقيته أو إتلافه، وإن الأعمال العظيمة تحتاج لأجل سيرها بنجاح إلى ذلك العقل الشاعر بمجرى الحوادث، المتيقظ بشدة إزاء أخلاق أصدقائه وخصومه وآرائهم المتغيرة، الذي يعرف كيف يتجنب بمهارة صلابة الوقوف في نقطة واحدة، تلك الصلابة التي من صفات أرباب العقائد النظرية. فعقل النجاح ينبغي أن يكون مرناً قابلا للأخذ والرد، يجب أن يعرف بقوة إدراكه ما إذا كان يجذف مع التيار أو ضده.

فمن طبع الإنسان أن يتطلع إلى الكمال ولكن لا يقدر أن يبلغه، ومع ذلك فمن هذا النضال إلا وهو مزج حاسة المسالمة بالثبات تتولد الشجاعة الحقيقية، والشجاعة هي النجاح.

أما الفزع أو الذعر هو الخوف الذي يجعل جمهوراً عديداً من الناس يندفعون إلى الهاوية بدون سبب معقول، أنه أحساس المجموع الذي لا يصحبه العقل، وحيناً ما يصطدم الفرد في عمله بهلع من هذا النوع، وإذا كان لا يعرف كيف يتدبر في أمره فأنه يداس في الوحل. على أن الفزع في الأعمال قليل الوقوع، فقد يصادف الإنسان مرة في حياته. ولكن الفزع الذي يقوم في عقل الفرد هو ذلك الخطر الداهم، فكم من الناس يخافون من وقوع كارثة مالية ويسمحون لهذا الخوف أن يقرض في عقولهم كما تفعل الفأر في الظلام، إن الذين لا يرون إلا الظواهر في ضوء النهار يجزعون كل الجزع لو علموا عدد الذين يقضون ليلهم في هم وأرق– يرتعشون وجلا من وقوع كارثة يتوهمونها قد لا تحدث قط.

ويشير بروك إلى أن الكساد يسبب الفزع لكنه ليس هو الفزع نفسه، بل مجرد أحد مسبباته، فهو ليس بالريح العاصفة التي تهب فجأة والحال هادئ –بدون تعقل في هبوبها أو اجتيازها– ولكنه شيء ممكن رؤيته قبل وقوعه ويجب أن يبصره كل سائح فطن فوق مياه الأعمال، والنوتي الحكيم هو الذي يطوي قلوعه قبل اشتداد الرياح. وليس الكساد نكبة في حد ذاته: فإنه علاج شاف تستخدمه الطبيعة عند تضخم الأعمال– في التجارة والصناعة ومع الفراد أيضاً.

إن كل إنسان أمامه عمل في الحياة، وعلى أسوأ حال يقدر أن يجد له مكاناً في النظام الاجتماعي –مهما كان صغيراً– يمكن أن يوفق فيه،

وإن لم يوفق فسيواجه الفشل وهو أكثر الأشياء مرارة الحياة، ومما يؤسف له أن الفشل غالباً نتيجة خطأ أو سوء فهم ممكن اجتنابه، فمع استثناء ذلك الرجل المجرم المتلاف بطبيعته– وهو استثناء نادر– فليس ثمة داع لهذا الفشل.

حازم عوض

مقدمة المؤلف

كتبت المقالات التي يحتويها هذا الكتاب أثناء تراكم أعمالي الكثيرة، ولم تكن لدي أي فكرة عن جمعها في كتاب كهذا، لذا يستطيع من أراد الانتقاد أن يجد هنا أو هناك تكراراً للفكرة الرئيسية، ومع ذلك فهذا برهان على وحدة الرأي الذي يبرر جمعها.

ولقد بدأت أسأل: ما النجاح في أعمال العالم؟ وأني يكون الحصول عليه؟ وكيف يمكن التمتع به؟ فحاولت بكل صراحة أن أجاوب على ذلك من اختباراتي الشخصية، فطرقت أبواباً متعددة المباحث، ولكن كلها كانت ترجع بي للغرض الرئيسي عن النجاح باعتباره موئلا يلجأ إليه الشاب ليجد فيه راحة لفكرة وقد أهملت تماماً مناحي أخرى مروضة للعقل أيضاً إلا أنها لم تمس بحثي.

وقصدي أن أوجه كلامي إلى الشبان في هذا العصر الحاضر، فإن الذي له الشباب له الفرصة السانحة أيضاً، إذ لا يوجد اليوم في السلطنة البريطانية أي عائق للنجاح لا يمكن أن يتغلب عليه العزم، فكل كاتب صغير لديه مفتاح النجاح في جيبه، لو أن له الشجاعة والمقدرة على إدارة المفتاح في قفل الباب المؤدي إلى هيكل النجاح، فعالم الأشغال والأموال مفتوح على مصراعيه أمام كل طالب، وفي كل زمان ومكان مئات من الشبان القادرين على النجاح متى أرادوا أن يراعوا القواعد التي تؤدي إليه.

إن طريق العمل اليوم ممهد مبسوط أمام المدارك، ولا يوجد بعد إرث شرعي للأعمال المالية أو التجارية أو الصناعية، فقد نسخت قوانين الموت والوراثة جميع التحفظات التي تحصن وراءها رجال المصارف والأعمال مدة جيلين أو ثلاثة ليردوا عن أنفسهم نتيجة عدم الأهلية الموروثة، وصار يعترف للكفاءة من أي نبع قطرت، وأصبح النزاع في عالم المال والتجارة شديداً جداً وميدان القتال متسعاً باتساع العالم لدرجة أنه لا يمنع أي شخص من أن يلعب بكفاءته دوراً كبيراً حسناً.

ولئن شجعت شاباً واحداً على أن يطأ بقدميه فوق الطريق المؤدي للنجاح وحذرته من بعض المخاطر التي تعترض طريقه، فإني أشعر بارتياح تام من أن هذا الكتاب لم يكتب عبثاً.

بيفر بروك

النجاح

النجاح هو الطريق السلطاني الذي يريد الكل السير فيه، لأن صدى المشي فوق بلاطه يرن رنيناً مفرحاً تهتز له النفس، أنه يقدم للطبيعة البشرية كل رغائبها: فيهيئ للإنسان الفرصة لاستعمال جهوده إلى حدها الأقصى، ويمنحه الشعور بالقوة، والسيادة على الحياة لا الخضوع لها، كما أنه يقرب للفهم كيف أن أعمالا عظيمة برزت إلى حيز الوجود بمجهود عقل فرد واحد.

ولكل إنسان في هذا الفن الصعب ميدانه الخاص به، فما يعرفه الممثل غير ما يعرفه الجندي، وما يسر له رجال الأعمال يقابله بإعراض رجال السياسة، ولكن مهما أساءت كل هيئة من الهيئات الاجتماعية إلى مطامح أو أداب الهيئات الأخرى فإن الكل يرمون في عبادتهم إلى غاية واحدة– فالعمل السياسي له نفس الجاذبية التي لعمل القائد، والمعابد لها نفس اللذة عند رجالها التي للأعمال التجارية عند أربابها.

ولست أريد هنا أن أتكلم إلا عن ميدان واحد للنجاح، وهو عالم الأشغال العادية الذي أعرفه وسأبدأ بمتناقضات في التعبير فأقول:

إن النجاح سجية طبيعية يمنحها الخالق للمخلوق، ومع ذلك يوجد من له كل السجايا الساحرة ويفشل كل الفشل فالإنسان لا يستطيع أن

يضيف شعرة واحدة إلى قامته، ولكنه يستطيع إذا أراد أن يمشي مستقيما، كما أن هباته الفطرية كلها ممكن فقدها بسبب لعنة واحدة من لعنات الحياة.

والنجاح ككل الأعمال البشرية مسألة ترجع جزئياً إلى الاستعداد وجزئياً إلى حرية الإرادة، فإنك لا تستطيع أن تخلق الذكاء ولكن يمكنك ترقيته أو إتلافه، ومعظم الرجال والنساء يملكون الصفات اللازمة التي يمكن أن توصل للنجاح هذا إذا استثنينا أصحاب المواهب الفائقة أولئك الذين يجب أن يحرصوا عليهاويزيدوها في آن واحد.

فما هي الصفات التي تأتي بالنجاح؟

هي ثلاث: الرأي والعمل والصحة.

وربما كان الرأي أعظمها، وتلك هي الأعمدة الثلاثة التي يشاد عليها معمل النجاح، ولكن من قال الرأي فقد قال كل شيء، لأن له في أعمال الحياة الصفة المتسلطة الحاكمة.

فكم من الناس لديهم مشروعات سامية، ومع ذلك ليس في استطاعتهم أن يضعوها موضع التنفيذ، وبسبب تفوقهم اللامع يسقطون على غفلة في خرائب الفشل، لأن دائرة الرأي تجمع داخلها مئات من الصفات كالعقد الذي تنظم فيه الجواهر المختلفة، فمن ذلك القدرة على قراءه أفكار الناس واستخراج كنوز الحكمة التي لا تنضب من اختبارات الماضي وتحويلها إلى قوة حيوية عاملة في مجريات الأيام المقبلة.

إن الذكاء يذهب إلى قلب الشيء كالسهم النافذ، ولكن الرأي هو الصفة التي تتعلم من الحياة علوم الحياة، ثم تخطو بالإنسان من حسن إلى أحسن.

فشيلي – أحد شعراء الإنجليزالكبار – مثلا، كان له الذكاء ولكن قد كان لا ينجح في عالم الأشغال ولو أنه أظهر استعداداً لفهم الأعمال في رفضه إقراض ماله لبيرون (شاعر إنجليزي أيضاً).

فالرأي في جوهره عبارة عن القوة التي تستطيع فهم الأمور على حقيقتها والاستفادة منها، فأفكار الناس وحركات العالم معظمها مواد لازمة لتلك الآلة المتقنة ألا وهي العقل.

على أن الرأي قد يؤل إلى كفاءة عقيمة إذا لم يصحبه العمل، فإن الرحى تلزمها الحنطة حتى تدور وتعمل، فقد تضيع فرصة عظيمة ويرتكب خطأ لا يصلح بسبب توقف قصير في وقت من أوقات صفاء العقل أو أثناء مجرى تأملات الفكر، "فالذي يريد أن يكون قصيراً في كل جهة" – كما قال كبلنج– "يجب أن يعرف كل شيء في كل جهة".

فكل شيء تقريباً يأتي للإنسان حيثما يكون مشتغلا بكليته هناك.

وفي الواقع أن الرجال لم يولدوا لعيش الكسل بدون رجاء، ولا رجال أعمال بطبيعتهم، فقد يتحركون هنا أو هناك حسب إراداتهم أو كما تدلهم الظروف، ولكن يبقى باب العمل مفتوحا لمن يريد ولوجه.

إن الصعوبة الحقيقية فيما يختص بالعمل هي استخدامه في جهته الصائبة فهو خادم للرأي، والسر في استخدام العمل أحسن استخدام هو حصره في جهة معينة، وهناك طرق عديدة ومعروفة لتعلم هذا السر الذي هو أقوى عامل لخدمة النجاح، فالعمل مستطاع ومن الواجب عدم الإسراف فيه.. أما الصحة فهي أساس كل من الرأي والعمل، ومن ثم فهي أساس النجاح، وبدون الصحة كل شيء صعب، فمن ذا الذي يستطيع أن يعطي رأياً سديداً إذا كان متهيجاً ذات صباح؟

أو من ذا الذي يقدر أن يجهد نفسه في العمل إذا كان يعاني آلاماً مستديمة لانحراف في صحته؟

إن المستقبل يلازم الشعوب التي تعتني بالرياضة البدنية على شرط عدم المغالاة فيها، فالمصارعة كحرفة يمكن أن تكون غير مجدية ولكنها كعلاج لا تقدر فائدتها، ولا يمكن لأي رجل عادي أن يؤمل في النجاح ما لم يمرن جسمه باعتدال، فخطر المصارع هو في اعتقاده أنه بإصابته الهدف قد ربح لعبة الحياة، ولذا لا يتفق غرضه فيما بعد مع العمل إذ همه الوحيد أن يكون متفوقاً في اللعب لا غير.

وهكذا ينظر إلى الواسطة والغاية بمجهر معكوس.

ومع أن كتب القصص تروي لنا أن الربان الماهر في سباق القوارب ينتهي بأن يصير قاضياً ممتازاً فهذا خلاف الحقيقة، فإن حرفة اللعب تؤدي فقط إلى الفشل والسمن أو الضعف، وبطل ميادين اللعب يتحول

فيما بعد إلى أبله في عمله، وغيره من الرجال يستمرون في ألعابهم إلى أن تسلبهم الكهولة من قواهم الطبيعية، وفي النهاية تتكشف الحقيقة عن أن المسألة كلها غرور في غرور.

ألعب لعبة "التنس" أو "الجولف" مرة في اليوم وأنت تصير شهيراً، وإذا لعبتها ثلاث مرات في اليوم فإنك تعرض نفسك لخطر الاعتقاد بأنك اختصاصي في العب – بودن مكافأة!

وهذا هو الحال فيما يختص بالانعكاف على الملذات: لها نفس هذه النتيجة الفانية، فإن الوقت والخبرة يسلبان نفس اللذة من جمالها، وليلة الحظ لا تساوي وجع الرأس في الصباح التالي، فالنجاح العملي وحده يصير بداءة الكهولة أشهى وأجمل وقت من أوقات الإنسان في حياته العملية، فما يزرعه في صباه تنضج حينذاك ثماره.

والنتيجة أن القرائح وحدها ليست بالقوة، والمال وحده ليس بالقوة، ولكن العقل والمال معاً هما القوة الفعالة، أما الشهرة وهي الغرض الثاني لمطامع الإنسان فإنها اسم آخر للمال أو القوة.

ولم يحصل أن سمح الزمان بفرصة أنسب من الفرصة الحاضرة التي تقدمها بريطانيا العظمى لكل رجل أو امرأة تحركه مطامعه لبلوغ النجاح في الحياة إذا انتهز هذه الفرصة ووجه عقله إليها، فإن أملاك الدولة البريطانية قد ألغت منذ القدم الامتيازات الموروثة ولم يوضع أي حاجز لمنع الفقير من النهوض إلى أعلى درجات الثروة والقوة إذا كان

كفؤاً للعمل، وقد حصل مثل هذا التوسع في بريطانيا العظمى اليوم فإن الرجال لا يولدون بعد وزراء، وصارت التربية تتدرج بسرعة في سلم الكمال الذي يسمح لكل رجل مولود في كوخ أو وسط حقير أن يصل إلى قمة النجاح والقوة.

فما هي الصفات الثلاث التي يجب توفرها للنجاح: الرأي والعمل والصحة، فالرأي يمكن ترقيته، والعمل ممكن الحصول عليه، والصحة مستطاع بلوغها لكل مجاهد، وتلك هي الدعائم الثلاث التي يشاد عليها بناء النجاح الذهبي.

السعادة

إن هيكل النجاح المشيد فوق أعمدة الصحة والعمل والرأي يقف بجواره هيكل آخر يحتجب خلف ستائره سر السعادة.

وتوجد بلا شك صور متباينة لهذه الهبة الثمينة التي تختلف بحسب الأمزجة المختلفة وتتنوع بتنوع الاختبارات، فقد يجوز أن يفشل الإنسان في أعماله وفي الوقت نفسه يبقى سعيداً، فإن الحياة الروحية الداخلية شيء آخر منفصل عن النجاح المادي، ولقد وجد أيضاً من يشكو من أمراض مزمنة كروبرت لويز ستفتسن ومع ذلك فقد ظل سعيداً.

ولكن يجب أن نترك جانباً مثل هذه الاستثناءات ونتكلم فقط عن الرجل العادي الذي يعيش من عمله ولأجل عمله والذي يرغب في النجاح والصحة ويتمتع بهما أيضاً.ولنفرض أنه نال هاتين المزيتين– النجاح والصحة– فهل يتحتم أن يكون سعيداً؟

من الممكن أن يصل إلى الهيكل الأول، ولكن السعادة قد تبقى محظورة عليه، فإن شهوة شديدة عنده قد تكون سبباً في تعذيبه، وحب ذات مفرط قد يجعل حياته تعيسة، أو أن ضميره الحائر قد يتحد برذيلة الكبرياء فيحرمانه السعادة، فالشخص الحائز للصحة والنجاح أمامه ثلاث قواعد عظيمة: أن يصنع العدل ويحب الرحمة ويسلك بتواضع

وهذه هي الدعائم الثلاث التي يقام فوقها هيكل السعادة.

إن العدل الذي هو اسم آخر للأمانة في العمل وفي التفكير ربما كان أسهل الفضائل الواجب على الشخص الناجح أن يتصف بها، فقد علمه اختباره شيئاً أعمق من مجرد قبول الرأي المبتسر وهو: "أن الأمانة أحسن سياسة" ما دامت توصل للغرض.

كلا، إن العدل الحقيقي يجب أن يذهب إلى أبعد من مجرد الخوف من القانون، بل أبعد من الحقيقة الراهنة وهي أن انهماك العامل في مزاولة عمله قد لا يعود عليه بربح يذكر.

العدل! ليكن سجية الإنسان العقلية ومبدؤه الراسخ بأن يكون مستقيماً في معاملاته المالية أو السياسية، ينبغي أن تكون محباً للعدل بطبيعتك، مطبقاً إياه في جميع عقودك وعهودك معنى وحرفاً.

إن العقيدة بأن أغلب الناجحين مستقيمو المبدأ ذات أنصار كثيرين، ولكن الرجل العارف يرى في هذه العقيدة منتهى الغباوة، ذلك لأن النجاح ليس المحك الوحيد والأخير للأخلاق إذ لا يقول بذلك إلا كل متسرع.

والرأي المضاد لذلك -وهو أن النجاح ربما انطوى على نقص في المبادئ الأدبية- منشؤه الحكم على الإنسان بأفكار خصومه وأعدائه أو جيرانه: مع أن الحكم الصحيح على أخلاق الرجل يجب أن يصدر من قرنائه، فإنهم إذا تكلموا فيه كلاماً حسناً لا يكونون مبالغين، كما أنهم دائماً يعطفون على من خاب في حلبة المنافسة معهم.

وقد يسأل البعض عما إذا كان العدل مثل كل الفضائل الأخرى مصدره المصلحة الذاتية؟ ولكن الذي يقول بذلك ينقض تلك المبادئ السامية التي جاءت بموعظة المسيح على الجبل وتعليمه بأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به وهذا تعليم صحيح لا شك فيه، إذ لا يمكن أحداً أن يكون سعيداً إذ ظل يعاني آلام الارتياب في عدله.

والصفة الثانية –أي الرحمة– ينظر إليها كشيء متنافر أو معاكس لصفة العدل، وهذا النظر خطأ، فإن الرحمة تشبه امتياز القاضي من حيث تلطيف القانون ليتناسب مع الحالة الفردية التي أمامه، فيجب أذن أن تكون الرحمة من طبيعة العدل وإلا انحطت إلى مجرد ضعف ورعونة، فالإنسان يجب أن يتأكد من ميوله العادلة قبل أن يتجاسر على استعمال الرحمة.

على أن صفة الرحمة ليست هكذا شائعة في النفوس البشرية شيوعاً يستلزم الاحتراس لأنها صفة اكتسابيه.

ورجل الأعمال الناجح يجب أن يكون آخر من يشتكي من صعوبة الحصول على هذه الصفة، فلابد من أنه شعر في مستهل أيامه بأن اليد القوية لا تشارك غالباً الضعفاء في عواطفهم، وعرف أيضاً بأنه يحتاج إلى الرحمة في تفسير مركزه المالي في بعض الأحيان.

وربما لم يكن هذا في فكر شكسبير عندما قال: "إن الرحمة بركة لمن يعطيها ولمن يأخذها" ولو أنه صادق في قوله إن الذين يمارسون

عمل الرحمة يدخرون في الواقع هذه الرحمة لأنفسهم، لقد كان القانون في صف "شيلوك" وأما العدل والرحمة فلا.

وهذه الحادثة تذكرني بلاعبي القمار "بمونت كارلو" فإن خسائر اللاعبين هناك –وهذا شيء لابد منه لمن يطيل اللعب– تسبب لهم الحزن، ومع ذلك فصاحب الجعالة يرى أنه يعمل عين الرحمة لو أمكنه أن يتقاضى جعالته من لحم اللاعبين لا من نقودهم، بينما بعض اللاعبين يدل مظهرهم وخلقهم على أنهم يفضلون الخسارة رطل من اللحم على رطل من الجنيهات، فهل ذلك رحمة!

إذن ما صفة الرحمة الحقيقية؟

إنها شيء أسمى من الرغبة في عدم الجري وراء الفائدة إلى أمد بعيد، أنها الشعور بالشفقة التي تنبت من الاختبار الشخصي كما تنبت الزهرة بين الصخور، أنها أحساس داخلي بالشكر منعكس إلى الخارج في أعمال الإنسان وعلى ذلك يكون مطمئناً صاحبه بسعادة مقيمة.

أما صفة التواضع فهذه أصعب الصفات للحصول عليها فإنه يوجد شيء عميق في طبيعة الشخص الناجح ينازعه هذه الصفة، فعمله قام بمعنى ما وسط جهاد وإقدام فانتصار.

وهذه العوامل في ذاتها يظهر أنها تدعو إلى الظهور بمظهر الكبرياء في أتم معانيها.

ولا أستطيع أن أدعي أنني متواضع وكل ما يمكن الاعتراف به هو معرفتي أنني بقدر ما أكون متواضعاً أكون سعيداً، والواقع أنه توجد حالات كثيرة تبرهن على أن النجاح والتواضع ليسا بالنقيضين، فأحد رجالنا السياسيين المتفوقين متواضع بطبيعته تواضعاً لا يمكنه الخروج منه.

على أن الصعوبة في التوفيق بين الصفتين مرجعها حب الذات والاعتزاز بالشخصية، ومع أن هذه صفة غالبة في الرجال الأكفاء ذوي المطامح الكبيرة إلا أنها نقص في الأخلاق وعيب على كل حال.

ولكن هناك صورة حقيقية للتواضع يجب على رجال النجاح أن يتخلقوا بها، ففي إمكانهم أن يكبحوا جماح هواهم من حيث النظر باحتقار إلى الشبان الذين يحاولون أن يضعوا أقدامهم في الطريق التي وضعوا هم فيها أقدامهم من قبل.

إن الكبرياء التي تمنع الثقة أو الفرصة للقرائح الناهضة لهي كبرياء لا يغتفر لها، فالشخص الذي يسلم نفسه إلى ما هو في الحقيقة صورة للحسد لا يمكن أن يؤمل في أن يكون سعيداً لأن الحسد فوق كل شيء شهوة تمزق القلب تمزيقاً، فالعثرة الكبرى التي تمنع الفائز من اعتناق صفة التواضع هي صعوبة التمييز بين التواضع وبين الجبن، فالمسألة هي متى يصير التواضع إلى الجبن والشجاعة إلى الكبرياء.

بعض الناس في التاريخ حلوا هذه المشكلة لأنفسهم فقد كان ستو نوال جاكسون مثالا للرجل الفائق في الشجاعة والإقدام وسداد الرأي،

ومع ذلك كان فائقاً في تواضعه أيضاً، ولكنه كان مديناً فيما يختص بصفاته الجسمية والعقلية إلى الطبيعة، وأما تواضعه فالفضل فيه راجع إلى إيمانه الشديد بمذهبه الإنجيلي، والذين ركبوا هذا التركيب السعيد قليل عددهم.

فإذا كان للرأي قيمة فمن واجب الإنسان أن يمارس الشجاعة بدون كبرياء، وأن يسلك بتواضع بدون خوف، فإذا تم له ذلك فإنه لا يحصد مكافأة مادية فقط بل محصولا وافراً من راحة الضمير.

هنالك يعثر على عصفور السعادة الأزرق الذي يفلت من الفخ بسهولة، وبذلك يضيف العدل إلى الرحمة ويقرن التواضع بالشجاعة، وفي نور هذه الحقيقة يصل إلى قمة الراحة الدائمة.

الحظ

بعض الناس لا يؤمنون بأن هيكل النجاح يقوم على أعمدته الثلاثة فقط وهي الرأي والعمل والصحة، فيعترضون بأني أهملت عاملاً حيوياً ألا وهو الحظ.. وهذا الرأي الذي مصدره الوثنية على الأكثر قد انتشر إلى حد القول بأن الحظ هو الذي يعمل الإنسان أو لا يعمله فمناقشة مثل هذا الرأي الخطر ونقضه يخيل لي أنه أمر واجب.

وبدون شك إذا كانت هذه النظرية تعني أن الرجال محكومون بالظروف والحوادث فهذا صحيح: إذ لا ريب في أن من يولد وارثاً للقب شريف ومليون من الجنيهات لهو أكثر حظاً ممن يولد غير وارث.

ولا ريب أيضاً في أن مصيبة تحل بفرد واحد قد تغير كل التغيير مجرى حياة خلفائه. ولكن عباد آلهة الحظ لا يعنون شيئاً من هذا، بل يدينون بالرأي القائل أن بعض الناس يولدون سعداء وغيرهم أشقياء كما لو كان الحظ قد ترأس ولادتهم، وبغض النظر عن أهلية هذا أو ذاك فإن النجاح يلازم أولئك الذين يبتسم الحظ لهم، والفشل يحل بأولئك الذين يعبس لهم، أو على الأقل أن الحظ يعتبر كما لو كان سجية خاصة بإنسان دون آخر كمن عنده استعداد للحساب مثلا، أو للألعاب الرياضية، ولا مشاحة في أن هذا الرأي في جوهره اعتقاد المقامر الحقيقي الذي لا يرتكن على مهارته الشخصية بل يتقدم للعب مرتكناً كل الارتكان على حسن أو سوء الطالع.

فأصحاب هذا الرأي يتصورون أن الحظ إذا اتجه هنا أو هناك أتى بحوادث حسنة باستمرار أو غير حسنة باستمرار على أن هذا التصور مجرد كابوس فكري لا يساعد بصفة خاصة على النجاح في الأعمال: فإن قوانين ألعاب البخت والنصيب لا تلين في حكمها ككل قوانين العالم، ففي حلبة النزال لابد من أن يقهر اللاعب الماهر من هو أقل منه مهارة، "فبنك" مونت كارلو، مثلاً، دائما يغلب الفرد الذي يستمر طويلا في لعبه، ومن رأيي أن البنك هناك يدار بأمانة ولو أني لا أعرف ولا أهتم بما إذا كان الأمر كذلك، ولكن المؤكد أن الجعالة تربح ثلاثة في المائة في كل دور، والنتيجة الحسابية لهذا أن اللاعب يخسر حتما رأس المال الذي يلعب به بعد ثلاثين دورة، هذا إذا فرض ولم يكن الحظ معه أو عليه، ونصيحتي لكل رجل أن لا يلعب القمار مطلقاً.

إن الصحافة تنشر من وقت لآخر أخباراً عن الحظوظ الوافرة بمونت كارلو، فأصحاب العمل هناك يفهمون قيمة النشر فإن إعلاناً كهذا يأتيهم بالجديد من اللاعبين.

وأرى أنه من الضروري أن أنبر على هذا الجانب القماري من المسألة لأن كل شخص يؤمن بالحظ يشترك في إحساسهمع لاعبي القمار، والمقامر من وجهة النجاح الحقيقي في الأعمال مقضي عليه بالفشل مقدماً. وهذا التصور يجب أن يشكمه الإنسان بعنف إذا ما رآه محتلا لصرح عقله، فإنه منظر طالما أفسد الشباب بأن أغراه أن يكون طماعاً أكثر من أن يكون عاملا مشتغلا.

إن السعد الذي يرى كآلهة لامعة هابطة من علوها الشاهق لتتصل بصاحب البخت الحسن برياشها وخزائنها الذهبية لمما يذهل عقل الشباب ويربكه. فالناس يتصورون أن ضربة واحدة تصيرهم إما أغنياء مدى الحياة وإما فقراء إلى الأبد.

أما الرأي الغالب في المسألة فأنه أقل مغالاة مما ذكر: فشكوى أصحابه تنحصر في أن الحظ لم يطرق أبوابهم قط، ففشلهم لعدم وجود عمل لهم فشل مغتفر لأن آلهة الحظ قد عاكستهم.

وتوجد صورة ثالثة لهذا المرض العقلي، فقد كلمني شاب عندما كنت بمونت كارلو قال: "لقد كان في إمكاني أن أعمل أي شيء لو كان فقط لي الحظ ولكن هذا الحظ لم يأت في طريقي قط". وفي مساء ذلك اليوم نفسه رأيت هذا الشاب المتعطش للحظ يلقي بكل حظ يمكن أن يأتيه فوق موائد الميسر.

وشبيه بهذا الخلق نفسه تجده في الشاب الذي يرفض بعناد الطلبات الحسنة وفرص الأعمال الصغيرة التي تعرض عليه بحجة أن هذه لا تحسن في عينيه بدرجة كافية، فهو يتوقع أن الحظ يهبه فجأة مركزاً مهيأً أو حظاً وافراً يتفق مع الآراء السامية التي يرتئيها عن كفاءته ومقدرته.

وسوف ينقضي بعض الوقت فينفر الناس منه ولا يعرضون عليه أي عمل جديد، وهكذا لم يكن استعطافه لآلهة الحظ إلا إهمالا لآلهة الفرص.

ومثل هؤلاء الناس يهبطون وهم في منتصف أعمارهم إلى فئة معلومة، فأنك تراهم متمسكين بمعبودهم –أي بفكرة الحظ– مبينين إلى قرنائهم العاملين الناجحين بأنه كان في إمكانهم أن يصلوا إلى درجة رئيس القضاة لو أن قضية كبرى صادفتهم في حياتهم، وهكذا يتوسعون في هذا المرض المخيف المعروف "بالذكاء الذي لم يختبر"، وحالهم في الغالب تستدعي الشفقة أو السخرية كحال ذلك الرجل ذي المواهب المتوسطة الذي يصيره المسكر أو أي رذيلة أخرى عاجزاً تمام العجز، ومازال الناي يهمس بعضهم لبعض عندما يمر عليهم هذا العاجز قائلين: "آه لو لم يكن فلان سكيرا لكان في استطاعته أن يعمل كل شيء".

ولكن ترى المركز العقلي للرجل الذي يريد حقيقة أن ينجح مختلفاً عما تقدم تمام الاختلاف فإنه يطرد فكرة الحظ من رأسه ويرحب بالفرصة التي تأتيه كيفما كانت صغيرة والتي يمكن أن توصله إلى أعمال أكبر وأوسع، أنه لا ينتظر الحظ حتى يفتح له أبواب السعادة بل يقبض على الفرصة من جميع نواصيها ويوسع دائرتها بجده واجتهاده، قد يجوز أنه يخطئ هنا أو هناك نظراً لحاجته إلى الرأي أو الخبرة، ولكن من واقع فشله يتعلم أن يحسن عمله في المستقبل، وعند اكتمال معارفه يكون قد بلغ النجاح، إنك على الأقل لا تجده جالساً يندب حظه الذي كان دائماً ضده.

بقيت حجة، وهي الأكثر خداعاً في جانب المزاج القماري، وهذه الحجة لدى المؤمنين بالحظ هي أنه يوجد أناس قد اختصوا بحاسة

سادسة في عالم الأشغال، وهؤلاء الناس -كما يقال- يعرفون بغرائزهم لا بعلومهم العقلية أي مشروع ينجح أو يفشل، وعما إذا كان السوق سيرتفع أو يهبط، فهم أبناء الحظ.

إن تمثيل مثل هذه المسائل على حقيقتها يختلف عما يراه أولئك الصوفيون المبشرون بالحظ الذهبي، فإن الرجال المتفوقين الذين على اتصال تام بالمسائل العظيمة -في السياسة أو في الأعمال- يظهرون في تصرفاتهم كما لو كانوا يعملون عن غريزة فيهم.

مع أن الصحيح أن درسهم الدقيق باستمرار لحوادث الحاضر والماضي قد غذاهم بعلم غزير لدرجة أن عقولهم تصل إلى النتيجة عفواً بطريقة "ميكانيكية" شبيهة بدقات القلب التي تحصل بدون محرك من المخ، وإذا سألتهم عن الأسباب التي بنوا عليها آراءهم تجدهم غير واضحين أو غير مفهومين في إجابتهم، فعقولهم المتيقظة لا تستطيع أن توضح لك الاختبارات التي تجمعت من زمان طويل في أعماق نفوسهم.وهؤلاء إذا ما برهنوا على صواب في الرأي من أول وهلة يصيح بهم العالم قائلا "يا للحظ"!

على أن الحظ الذي من هذا القبيل إذا ظل مطرداً وقتاً يذكر فمن العدل أن ينسب لسداد الرأي لا غير.. أما ذلك المضارب الحقيقي على البخت فهو من نوع مختلف، أنه يضرب ضربة باهرة أو ما يماثل هذا، وبعدئذ تراه وقد اختفى تحت نكبة جارفة، فالسرعة التي يفقد بها ثروته

هي نفس السرعة التي عملتها.. لا شيء إلا الرأي والعمل مؤيدان بالصحة يضمن نجاحاً حقيقياً ثابتاً، وما عدا ذلك فمجرد خرافات.

يمكن وضع صورتين أمام المؤمن بأن الحظ هو العامل للنجاح.أحداهما مونت كارلو التي معبودها الأول الآلهة الحظ تلك الأرض المجللة بضوء الشمس الدائم تقريباً، المحاطة بأبراج حصينة، المستمدة لمظهر الخلود من ذلك الأفق الأزرق أفق البحر الأبيض المتوسط، الأرض التي يدل إشراقها ونورها على أنها خلقت للرياضة النقية والراحة معاً ومع هذا لا ترى الشباب هناك إلا في حالة الشقاء، وفساد الآداب، بينما ترى الشيوخ مكدسين بحجر المقامرة ليثيروا شهوتهم المتعبة أو ليقضوا عليها القضاء الأخير بانكبابهم على لعبة لا نتيجة لها إلا الخسارة المؤكدة.

هنالك ترى أولئك الذين يدينون بالحظ في حالة انحطاط منغمسين في جو من الدخان وثوران الفكر، في حين أن الطبيعة بجمالها وضروب الصحة أمامهم تناديهم إليها فلا يجيبون، ولئن كانت غرف التنس الثلاث ذوات الأنوار الضئيلة ينافسها ثلاثون غرفة من غرف الكازينو المجهز بأحسن الأثاث إلا أن وسائط الرياضة المعتدلة لا تحصى أيضاً، فإن إدارة الحمامات تقدم إلى البدين أو منهوك القوى الحمام الساخن والتدليك الكهربائي وجميع الأدوات الميكانيكية المجددة للنشاط، إن العلم والفن الحديث يعملان معاً للتفوق على الجاذبية التي كانت لحمامات روما الإمبراطورية.

إن شباب هذا العصر يحسنون كل الإحسان لو أنهم اعتبروا بهم واقتفوا طريقهم، فإنه ليس بعبادة آلهة الحظ وصل هؤلاء للثروة الكبيرة أو الشهرة الواسعة، أنه حق وأمر طبيعي للشاب أن يرجو ولكن إذا تحول الرجاء إلى التصديق بالحظ فإنه يصير سماً لعقله.

إن الشبان أمامهم فرصة بديعة، ولكن ليذكروا دائماً أن لا شيء غير العمل والقرائح يحسب له حساب، وإن الإنسان بعمله يمكنه الوصول حتى إلى العقل، وعدا ذلك لا توجد آلهة أخرى تفتح للإنسان أبواب معبد النجاح.

الاعتدال

إن الرأي والعمل والصحة كأدوات للنجاح تتوقف كثيراً على صفة رابعة وهي ما يمكن أن نسميها ضبط النفس أو الاعتدال، فرجال النجاح في هذه الأيام العصيبة هم أولئك الذين اعتدلوا في أمورهم وحاسبوا أنفسهم بدقة.

قد يقال أن رجال الماضي المتعلمين كانوا شذوذاً لهذه القاعدة، كشارلس جيمس فوكس أو بولنجبروك، ولكن أشخاصاً كهؤلاء نازلوا أمثالهم في الأخلاق، أي أنهم لم يعاركوا رجالا حافظوا على صحتهم وأبقوا على هدوء رؤوسهم في الصباح.

أما اليوم فمن المحال أن تتصور زعيماً من زعماء المعارضة يمكنه أن يوسع دائرة هجومه على الحكومة بمهارة بعد أن يكون قد مضى ليلة في القمار وخرج بدون (فطور) أو بدون حمام، فأيام تلك الأخلاق قد مضت وانقضت، وأصبح رجال السياسة لا يتخلون عن مناصبهم في سن الأربعين ليشبعوا أذواقهم، لذلك ترى المعارضة شديدة اليوم كلما تصادمت مع ذكاء مهمل غير مبال.

إن رجال الأعمال العصريين يدركون أن أي تضحية صحية معناها تضحية السنين، والسنة والواحدة لها قيمتها، وهذا ما جعلهم يحصنون

أجسامهم باعتبارها الحصن الأخير ضد هجمات العدو، فالإنسان الذي بدون هضم قد يشبه الذي بدون قلب، ولا يخفى أن الشجاعة السياسية والمالية تنبع من الأعصاب أو المعدة بقدر ما تنبع من المخ، وبدون شجاعة ليس لأي سياسي أو مالي قيمة تذكر، لهذا يمكننا أن نقول بأن الاعتدال سر النجاح.

وهنا أريد بصفة خاصة أن أوجه نظر الشباب إلى ضرورة الاعتدال المطلقة فيما يختص بالمشروبات الروحية، إنني آخر رجل في العالم ينتصر إلى إخضاع العادات الاجتماعية لحكم القانون، فليكن كل فرد هو الحاكم والمقنن لنفسه بنفسه، ولكن المسلم به أنه غير ممكن لأي فرد أن يفوز بالنجاح ما لم يكن شديداً مع نفسه في هذه المسألة، وليس من ضرر لو تعهد كل مؤمل في النجاح بالامتناع عن شرب المسكرات كلية.

خذ مثلا رئيس الوزارة (وكان وقتئذ المستر لويد جورج) فإنك لا تجد من يفوقه في الاعتناء بنفسه، فشخص كبو لنجبروك وهو سيد المناورات كان لا يمكن أن يجاريه لأنه فقد أعصابه في نكبته الأخيرة، في حين أن رئيس الوزراء كان حريصاً على أن يكون له ذكاؤه وشجاعته دائماً حوله.

إن المستر لويد جورج يعتبر الشخص الذي يركب عاصفة السياسة بأعصاب تحمله إلى الأمام، وأي رأي عنه غير هذا لا يكون صحيحاً، ففي أسوأ أيام الحرب سنة ١٩١٦ كنت تجده في وزارة الحربية يقيل

قيلولته المعتادة مدة عشر دقائق، وقدميه فوق أحد الكراسي وحوله الجرائد مبعثرة هنا وهناك كأسلاب الموقعة الحربية، وكان يكون من دواعي الشفقة لو أنك افترضت أنه هكذا غفا في نومه قبل أن يطالعها! وحتى في لعبة الجولف فإنه يلعبها باعتدال، وكم مرة قيل لنا أنه في حاجة إلى راحة طويلة ومع ذلك كان يستعين بقواه الاحتياطية التي لا تفنى تلك التي اختزنها في سنى شبابه. وهذه الطريقة هي سر مجده العالمي، وهي نفس السبب الذي لا يدع رجل القيادة هكذا مشغولاً عن أن ينظر في أي طارئ هام مهما كان خطيراً.

خذ أيضاً الزعيم السابق لحزب المحافظين –المستر بو نارلو– فإنه مهما اختلف والمستر لويد جورج في مزاجيهما من وجهات متعددة إلا أن أساس الرأي عنده هو الرياضة والاحتياط، أنه كلاعب رياضي لا يحسب شيئاً ولكن الحماسة التي يبديها في لعبة التنس تعوض عليه ما ينقصه من المهارة، أما أخلاقه فأخلاق النساك في شدتها، فهو لا يتعاطى السكر، وأجمل غداء في الغالب لاحظ له فيه، فشيء قليل من أبسط الأطعمة يكفي شهيته، ولطالما أظهر عدم ارتياح إذا ما صادفته أكلة دسمة.

والحال أن قواه الطبيعية تجملت أكبر مجهود ممكن وضعه على أي مشتغل بالخدمة العامة، فمنذ الساعة التي التحق فيها بالحكومة الائتلافية في سنة ١٩١٥ إلى اليوم الذي اعتزل فيه العمل سنة ١٩٢١ وهو محاط بمتاعب ومنهمك في أعمال قل أن لا تجرف أمامها أي رجل

آخر. ولم تكن هذه الحكومة ولا غيرها من الحكومات الائتلافية التي تلتها مقبولة عند فريق عظيم من أتباعه المحافظين.

لذلك كانت مهمة الحكم وما تستلزمه من قرارات الحرب الهامة عبئاً باهظاً على عاتقه نظراً للضرورة الحاكمة وهي إطلاع أعوانه باستمرار على إدارة الحكومة، ففي سنة ١٩١٦ اتخذ ذلك القرار الهام الذي أقصى المستر اسكويث عن الوزارة لمصلحة المستر لويد جورج، وأثناء وزارة الأخير تحمل مجهوداً كبيراً من حيث التوفيق بين نفسه –نظراً لأمانته لمباديه– وبين أساليب الحكم التي لم تكن متجانسة مع طبيعته الشخصية.

وإزاء كل هذه المتاعب لم يطلب إجازة قط للراحة ولا شيء سوى اعتداله الشديد في الحياة هو الذي مكنه من حفظ ذلك الرأي الحصيف الهادئ سليما وذلك النشاط الجسماني عاملا طول هذه السنين.

وهاك رئيس القضاة الذي يمكن أن يعد استثناء لهذه القاعدة حسب الظاهر، مع أن هذا خلاف الواقع، إن مزاجه حقيقة لا يعرف حداً للعمل أو للرياضة، فأحدي خطاباته بمجلس العموم التي تفوق فيها بنجاح باهر كان ثمرة رياضة شديدة يوماً من الأيام تلاها سهر ليلة للاستعداد وهو بفوطة مبتلة ملفوفة حول رأسه، ورغم هذا فقد أظهر نشاطاً تاماً في خطابه، ويرجع ذلك إلى الهبة الثمينة التي له وهي أبدع جسم في تركيبه ببلاد الإنجليز وكأن كلبنج في شعره عن فرنسا كان يعينه تماماً عندما قال: عنيف في تلذذه، وبلا شفقة في عمله، له قوة مخيفة، تجددها تربة لا تتعب.

إنه بلا نظير من حيث بذل نفسه في الرياضة وفي العمل ومع هذا الميل المتطرف فإنه رجل ذو إرادة حديدية ومراقبة شديدة من نحو نفسه، فمن صفاته أنه يكره ذوي الغايات والمآرب وينتصر لحرية الشعوب في عاداتها الاجتماعية، ولا يتعاطى أي مسكر وهذه القدرة على ضبط النفس تشير إلى تفوق أعلى ينتظر.

وربما كان المستر ما كنا المثال العجيب عما يستطيع أن ينجزه العزم في سبيل ترقية الإنسان صحياً وعقلياً، فقد تفوق بجده في سباق القوارب ثم تمكن مع قيام وزراء ماليين عديدين ورجال عظماء في الأعمال من فتح طريقه عنوة في الأمور السياسية والاقتصادية حتى صار في مدة أربع سنوات الشخص البارز في القيادة، وهذا شيء لم يسمع به، وقد كان من سوء حظه عند دخوله ميدان الخدمة العامة أن يكون عنده عائق اللكنة أو التمتمة في الكلام، ولكن سرعان ما عالج ذلك بأن صار يقرأ بروك بصوت عال وسط عائلته إلى أن تغلب على هذا الداء، وصار يتكلم بسرعة زائدة مؤثرة.

وقد عالج هذا النقص أيضاً بأن كان يتلو خطابه على ماكينة لهذا الغرض ويسمعه منها ثانياً قبل إلقائه، والحقيقة أنه إذا وجد من يقدر أن يقول بأنه "عمل نفسه" فهذا هو المستر ما كنا الذي قدم المثال الأعلى لرجل الأعمال الحقيقي، بل لرجل النجاح المزدوج في الوقت الحاضر.

وهاك أيضاً المستر غوردونسلفر دج فإنه مثال الحياة البسيطة

العملية ولو أنه وسط نجاح لا يحد، فهو يذهب إلى مكتبه في كل صباح الساعة التاسعة ومع ما هو عليه من غنى وثروة ويتناول الغداء بسيطاً في غرفة تتفق ورغائبه من حيث اتساع النوافذ وكثرة الهواء النقي، فالنور والهواء يقدمان له -كما يقدمان لنا نحن- الصحة والرأي السديد.

وله في الواقع سر غريب وهو كيفية الاختلاء بنفسه بعيداً عن الأنظار، وللآن لم يكتشف أحد هذه القلعة التي يتحصن فيها فراراً من المتطفلين الذين يركبون ميزان عقله، على أن نجاح المستر سلفر دج قائم على اعتداله لا غير.

إن الحياة العصرية على ما هي عليه من التعقيد والارتباك تكره الناس على الاعتدال، فالعلوم أدت إلى ازدياد المخلوقات واتساع الأعمال، ورقت الوسائل التي بموجبها تستطيع بضعة عقول إدارتها، فكل يوم تجود الاختراعات بهذه الهبات المختلفة وترغم الإنسان على استعمالها.

فبقدر ما يكون الإنسان عبداً لآلات التلغراف أو التلفون مثلا، بقدر ما هو سيد لها، ولكن وسط هذا الاضطراب المزبد، اضطراب الحياة العصرية يمكنه أن يحفظ رأيه صحيحاً وأعصابه هادئة وعقله سليما وذلك من طريق النظام الشخصي الذي يمكن تحديده تماماً بأنه القمع أو ضبط النفس والاعتدال.

وهذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه الإنسان نظير العطايا التي وهبه الله إياها.

المال

إن جملة رسائل جدية وانتقادات يشوبها التهكم القارص وجهت لي وكلها ترمي إلى اعتباري رسولاً مادياً، وهذا غير صحيح، فإنني أدركت تماماً وجود مطامح وأمان أخرى في ضروب الفن والدين والأدب، ولكن من بادئ الأمر قصرت مجال نصحي على أولئك الذين يرغبون في عالم الأشغال العملية، فخاطبت الشاب الذي يريد أن ينجح في هذه الأعمال، فالانتقادات التي أساسها وجهة أخرى غير ما ذكرت إنما هي سهام طائشة.

المال كلمة لها رنة ساحرة تغري النظر بصورة من صور الجنة الجذابة، حيث يكون للمرء ما يريد، كما لو كان مالكا لمصباح علاء الدين السحري .

والحقيقة أن المال يحمل معه صفتين قيمتين فقط: الصفة الأولى كيفية جمعه، والثانية كيفية إنفاقه، فجمع المال يتطلب الحزم، والجد، والتوفير، وضبط النفس، وهذه تؤدي للنجاح والسعادة.

أما القدرة على إنفاقه فتجعل الشخص الذي صار قائداً لزمامه في طريق تحصيل المال سيداً أيضاً لما يحيط به من الظروف، ففي إمكانه أن يصور العالم المتصل به كما يريد ويشاء.

وعدا هاتين الصفتين فالمال ضئيل القيمة، وقد يكون لعنة كما يكون بركة، لذا تجد رب المال قليل الاهتمام أن يترك ثروة واسعة إلى ثروته، فإنه يعرف أن أولاده يصيرون رجالا أفضل إذا خاضوا بأنفسهم معترك الحياة ولا تركة لهم سوى عقولهم وأخلاقهم، فإن الثروة بدون إرادة أو عقل أو كفاءة لإدارتها لهي في الغالب الواسطة التي يستخدمها الناس لإشباع أجسامهم بالعيشة اللذيذة وعقولهم بالبطالة والفراغ، وهكذا يتعجلون المنية فتطوي حياة ذلك الشاب الثري قبل أوانه.

تلك إذن هي قيمة المال: الكفاح لأجله ثم القدرة على استخدامه، وهذا مطمح جميل في ذاته، ولكن كيف يمكن تحقيقه؟

إنني أحاول هنا أن أضع بضع قواعد محدودة لإرشاد الشاب الذي يبدأ بشيء قليل وفي عزمه أن يصل إلى أشياء كثيرة:

١- المفتاح الأول الذي يفتح باب النجاح هو السليقة التجارية- المعرفة والدراية بالقيمة الحقيقية لأي صنف من الأصناف، وبدون ذلك فلا فائدة لأي إنسان أن يتعب نفسه في دخول ميدان الأعمال بالمرة، ولكن إذا كان له هذا الفهم ولو بشكل أولي فإنه يستطيع أن يرقيه في أيامه الأولى عندما يكون العقل في دور التكوين إلى أن يصل ترقيه إلى أقصى درجاته، إنني عندما كنت صبياً كنت أعرف القيمة المالية لكل حجر من أحجار قريتي، وهذا التمرين صار عادة عندي وصلت بي أثناء اشتغالي بالأعمال إلى معرفة الأشياء الحقيقية لا السطحية لأول وهلة،

فالشاب الذي يسير في الحياة مهذباً ملكة تقوم الأشياء ومصححاً رأيه من واقع اختباره هو الرجل الذي ينجح في أعماله.

٢- ولكن لنفرض أن الشاب قد وصل إلى هذه المعرفة وهي تقدير قيمة الأشياء، فأنه مع ذلك يخرب نفسه قبل أنه يتمتع بهذه الهبة إذا لم يتمرن على التدبير، وأعني بالتدبير السير بحكمة في أعماله، يجب أن تفحص أرباحك وخسارتك قبل أن تفكر في اقتحام عالم المال والتغلب عليه، فإذا وجدت أن حساباتك تبرر ذلك فتقدم للدخول في هذا المعترك..كثير من الناس يصرفون وقتهم في وضع خطط لأرباحهم المقبلة التي يجوز أن يتحقق بعضها أو لا يتحقق بالمرة.

مع أنه لا شيء مثل المواظبة على نوع واحد من العمل حتى يبلغ الإنسان فيه درجة الإتقان، فالرجل الذي يتعلم كيف يدير عملاً واحداً بربح هو الرجل الذي تغلب على العوائق التي تقف في سبيل النجاح في عالم المشروعات الكبرى .

٣- يجب أن تحترس من أن تضرب بمنجلك ضربات واسعة حتى لا تتورط من بادئ الأمر في أعمال كبرى.

إن هذه القاعدة هي أهم القواعد في نظري، فكثير من الشبان تدهورت أحوالهم نظراً لإهمال هذه القاعدة البسيطة، أنه أمر سهل أن يتورط الشبان الذين لم تنضج تجارتهم في مشروعات خطيرة لا مورد عندهم لها، ولا خبرة لهم بها، مع أن تقويم الأشياء وممارسة التوفير

وقراءة أفكار الناس هي التي تنضج الكفاءة وتهيء الشاب لاستعمالهافي أعملا أوسع، فما هذه إلا صور للرأي وبالتالي للنجاح.

ولا يغيب عن البال أن عشرة الآلاف الأولى من الجنيهات هي التي تدخر، ويعمل حسابها فمنها النجاح الحقيقي وامتحان الأخلاق والضمان الأكيد للنجاح، فالشباب والقوة أعطيا لنا لاستعمالها في هذا الكفاح الهام، وكل فرد يجب أن يشعر بهذا النضال من كل نفسه إذا كان أن يكون من رجال الأعمال العظام، يجب أن يشعر به شعوراً يهز خيوط حياته كما تهز الصورة العظيمة ذلك المصور الماهر المستوعب لدقائقها.

فإذا ما جمع الشاب هذا القدر أمكنه أن يتقدم للأمام بحرية أكبر، وأن يخطو في أعماله خطوات أوسع، فقد صار له الاختبار المطمئن، وفي إمكانه أن يضرب بسهم نافذ لأن كل مفردات الأعمال صارت مألوفة في ذهنه، وبهذه المعرفة الثابتة لا يعترضه في طريقه ما يزغزغ أعماله.

"لماذا؟" –يقول الحارس في مناسبة كهذه نقلا عن برناردشو في تصويره نابليون بإيطاليا– "لماذا فتح الأمصار شبيه بطي رقعة المائدة؟ ذلك لأنه بمجرد طي اللفة الأولى يصير الباقي سهلا، حيث تتوالى الانتصارات".

وهذا في الواقع هو عمل القواد العظام في الصناعة، ومع ذلك فالرجل الذي يحصل على ثروة عظيمة إذا طبق هذه القواعد في أعماله يمكن أن يفشل في تحقيق مهمته الصحيحة ألا وهي السعادة، فلربما لا

يدرك أن صفات المؤمل ليست هي صفات الذي وصل لأمله، فإن الشعور بالمسئولية العامة هنا يجب أن يتفوق على روح الجهاد الفردي أي العمل للمصلحة الشخصية.

ولا يخفى أن الثقة الوطيدة هي شعار الأعمال المالية الكبرى، فرب المال العظيم لا يصدق أن أوقات الكساد قد تؤدي بالضرورة إلى الخراب، صحيح أن الربح في سنين الكساد قد لا يذكر ولكن هذه السنين الهزيلة لا تستمر إلى النهاية، ففي فترة كهذه تنهج الصناعة نفس السبيل الذي ينهجه ذلك الشخص البدين المحتاج للحمامات التركية، فينعدم التبذير وتظهر اختراعات جديدة ونشاط جديد يلائمان الحاجة الماسة، وإذا ما عادت أيام الرخاء مرة ثانية فإنها تجد الصناعة على استعداد تان –كالمصارع المتمرن– لمقابلة الحال من حيث تدفق البضائع ورواج الأعمال، فالكساد مهذب للأساليب الاقتصادية.

ولكن بعد هذا البيان يمكن أن يوجه إلينا السؤال الآتي من ذلك المرتاب: هل الكفاءة لعمل المال مما يرغب فيها وفي السعي إليها، وهل هي شيء يستحق أن يكون في الأخلاق، وهل هي برهان على المقدرة العقلية؟ والجواب "نعم".

إن المال الذي تكد لأجله يأتي ومعه الصفات الحقيقية التي تميز الأخلاق والعقول، فالعقل المالي في العصر الحالي هو العقل الأسمى، لماذا؟ ذلك لأن الذي يجاهد لأجله أكبر عدد من الناس ينتج أشد

المنافسات العقلية، أما السياسية فلفئة قليلة يشتغلون بها لمجرد الميل إليها أو التسلية بها أو لأنهم هكذا ورثوها، فإنك إذا تركت جانباً ذلك العبقري النابغة الذي يتألق نجمه مرة أو مرتين في كل قرن فإن قيمة الكفاءة التي تعد الرجل ليكون شخصاً محترماً في وزارة من الوزارات ليست إلا كفاءة ضئيلة إذا قيست بتلك الكفاءة التي يتطلبها عالم الصناعة أو المال.

إن رجال السياسة لا يصدقون ذلك، ولكن هذا هو الصحيح. فإن المواقع التي تحصل في الأسواق هي مبارزات حقيقية تتوقف عليها حقائق الحياة والموت والثروة والفقر والشهرة أيضاً، فالرجال هنا يقاتلون وخلفهم هوة سحيقة ليست معاشاً مقداره الفان من الجنيهات في السنة– كما هو الحال عند رجال الحكومة.

فالشبان الذين ينزلون هذا الميدان يجب أن يثبتوا أقدامهم بدون وساطة أو محسوبية، ولسوف ينتصرون ما داموا عازمين على تحصيل الرأي الذي يقدمه الاختبار عند تكوين عقولهم.

إن نصيحتي للشباب هي هذه فقط: إن المال ليس إلا ثمرة العزم والعقل يطبقان على أشغال العالم، فصاحب العزم الراسخ لا يعترضه أي عائق في سبيل الثروة.

التربية

وصلتني رسائل لا تحصى من الشبان اللذين يظنون أن الطريق للنجاح مغلق في وجوههم نظراً لنقص في تعليمهم، ولهؤلاء أوجه رسالتي التالية:

لا تعتقد قط أن النجاح لا يمكن أن يوافيك لأنك لم تتعلم بكيفية نظامية.

إن القرن التاسع عشر رفع التعليم لدرجة الألوهية كما أن رجاله البارزين أعطوا للتعليم المقام الأول في الحياة، وعندي من الشجاعة الكافية ما يجعلني أخالف رأيهم إذا كان يراد بالتعليم ذلك الأسلوب المدرسي الذي يفرض فرضاً، إن أسلوباً كهذا يحتمل أن يكون عائقاً –لا عوناً– للرجل المزمع أن يحترف عملا من الأعمال، فالشاب المقبل على الحياة يجب ألا يفتر أدنى فتور بسبب نقص تعليمه أو لأنه غير مطبوع بطابع أكسفورد أو كمبردج.

ومن الجائز أن يكون قد نجا من خطر عظيم: فقد يوجه التفاته إلى نوع من المعرفة –وهو في عهد الشباب السريع التأثر– فيصرفه هذا عن نوع آخر، على أن الحياة في ظل المدرسة لا تسمح للصبي أن يتعلم حقائق العالم القاسية، والأعمال تتناول الحقائق.

والواقع أن التربية ثمرة الميل الطبيعي، وليس النجاح ثمرة التربية،

فإن الذي يعمل حسابه لأنه يصير جزءاً حياً منه، أقول هذا على الرغم من عدم انطباقه على شخصي، فقد لقنت المبادئ المسيحية على غير إرادتي ومع ذلك بقيت معي، ولكن هذا يرجع إلى كيفية تربيتي الفذة: من الصعب على العقل الإنجليزي الحديث أن يدرك ماهية أبروشية نيو كاسل بنيو بر نزيك من حيث شتات بقعها الزراعية المحاطة بالغابات والتي يخترقها نهر عظيم في اندفاعه، هناك حيث تكون الأرض في قبضة الصقيع والثلج الحديدية مدة نصف السنة، وحيث يبقى النهر جمداً إلى مصبه، حتى أن المطر يستحيل إلى تراب أبيض والبحر إلى حجر ضخم أخضر، هنالك كان مقري ولذلك كانت فصول السنة هي المقررة لتربيتي الإجبارية، ففي زمن الشتاء كنت الجأ إلى المدرسة لأنها دافئة من الداخل، وفي الصيف كنت أصرف وقتي في الغابات لأن الطقس بها ألطف.

ولئن أعوزني الدليل الساطع على ما تعلمه التربية الذاتية فدونك المستر جارفن الذي لم يتعلم أي تعليم نظامي بالمرة في المدارس العمومية أو في الجامعات والذي ابتدأ يشتغل ليعيش في سن مبكر، ومع ذلك فإنه ليس فقط أقدر صحافي بين الصحفيين العصريين ولكن معلوماته عن الكتب إن لم تكن أعمق من أي رجل آخر في إنجلترا فإنها بكل تأكيد أوسع مدى، فهي ليست مقصورة على أمة من الأمم أو لغة من اللغات، فبواسطة مجهوداته الشخصية لم يحصل فقط على المعرفة ولكن على الأسلوب البديع والرأي الصائب، إن الذي يصغى إلى حديثه

في الآداب لا يخضع له فقط كما يخضع إلى تعويذة ساحر– بل يشعر كيف أن بحثه دقيق وتقديره لقيمة الأشياء قد أصاب كبد الحقيقة.

إن المطالعة هي الينبوع الحقيقي لكل من التعليم والإنشاء، فطالع ما تحب وليس ما يحببه لك الغير، فالمطالعة التي يرغب فيها عقل القارئ وميله هي المطالعة المفيدة المثمرة وهذا لا يتأتى إلا ذا كان الخيار للطالب بدون ضغط عليه من الخارج.

اقرأ أي شيء وكل شيء كما يفعل الإنسان ذو الهضم السليم والقابلية الحسناء الذي يأكل باشتهاء وبلا مبالاة من كل ما يقدم أمامه، وبطبيعة الحال سوف يهتدي إلى الاختبار الحسن مادام للإنسان عقل سليم في رأسه، فبعض الكتب سيلقيها جانباً وبعضها سيقرأها المرة بعد الأخرى، وهكذا ينمو مع الإنسان الميل للنوع الأصح من الآداب، وبلا شعور منه يتكون عقله وذوقه وملكة الإنشاء عنده، وبدافع غريزي لا شأن للإكراه فيه يفوز بعالم الآداب كله.

إنني شخصياً مدين كثيراً في تربيتي إلى مؤلفات سكوت وستفنسن التي كنت أتناولها خلسة من مكتبة والدي وأقراؤها أثناء الوقت الذي كان يجب أن أكون فيه بالمدرسة.

يوجد بالطبع أفرع خصوصية من أفرع التعليم تحتاج للتلقين، وهي ذات قيمة خاصة للحياة العملية، وفي طليعة هذه العلوم الرياضية واللغات الأجنبية، على أن معرفة العلوم الرياضية بدرجة عالية ليست

ضرورية للعمل الناجح وإن كان صحيحاً إن نوع العقل الذي يتناول بسهولة العلوم الرياضية لهو النوع الذي ينجح في عالم الصناعة والمال.

إن الشيء الوحيد الذي آسف له هو أن عملي قام في قارة تتكلم لغة واحدة في أعمالها التجارية من المحيط المتجمد الشمالي إلى خليج المكسيك، فاللغات الأجنبية عندي عبارة عن كتاب مختوم. ولو أمكن الإنسان أن يقدر تقديراً صحيحاً قيمة الأشياء التي لا يملكها فأنني أضع معرفة اللغات في رأس كشف المتحصلات اللازمة للنجاح.

ولكن بعد كل ذلك تبقى التربية الحقيقية في أماكن التجارة وأسواقها، فهناك درس الأخلاق يمكن الصبي المميز من أن يوسع دائرة معارفه من حيث تقدير أعمال المملكة المالية.

إن الاختبارات علمت أنه لا ينبغي لأي إنسان عند دخوله معترك الحياة أن يكون خائفاً أو يائساً بسبب نقص تعليمه الرسمي.

سألني رئيس القضاة أخيراً أين سأعلم ولداً من أولادي وعندما أجبته بأنني لم أفكر في المسألة ولم أهتم بها لم يستطع أن يهدئ روعه، ومع ذلك فالأسباب الحقيقية لعدم اهتمامي متأصلة في أعماق نفسي، فمن رأيي أن الولد هو السيد والسيد الوحيد، فإذا شاء أن ينجح في الآداب فما عليه إلا أن يقرأ كتب الأدب إلى أن يصل بواسطة ما يشربه منها إلى تلك السليقة التي تمكنه من التميز بين الكتاب النافع وغير النافع كما يحصل لذلك المجرب الذي يعرف وهو وغمض العينين الفرق

بين الدخان الطيب والدخان الرديء، وهذا أو ذاك لا يقدر أن يوضح أسباب معرفته، فإنه يبني حكمه على شعور داخلي ولكن كليهما يكون مصيباً عندما يقول: "هنا أحسنت في كتابتي، أو هنا دخنت دخاناً رديئاً".

وهذه هي رسالتي المشجعة التي أوجهها لكل شاب قد عزم أن ينجح في أعمال الحياة وللآن لم يدخل هذا المعترك.. إن المدارس العمومية تصنع النوع وأما الفرد فيصنع نفسه، وفي ساعة العمل من المرجح أن الفرد يغلب النوع، لا شيء يفيد أسلوب الإنشاء إلا المطالعة الشخصية. ولا معرفة النوع الجيد من الدخان إلا ممارسة شربه، كذلك لا شيء مفيد في الأعمال إلا الدخول فيها صغيراً، والميل إليها كلعبة محبوبة، وانتفاع الإنساني باختباره الشخصي منها.

وباختصار أن الرجل هو الحاكم على مصيره لا المحكوم عليه بهذا المصير.

الغطرسة

ما هي الغطرسة؟

هي خطية الشبان الذين بدأوا أن يفلحوا بمجهوداتهم الشخصية في أعمالهم، أنها ليست الكبرياء التي تعني تقدير الإنسان لقوته وواجباته بما لا يتفق مع الواقع، وليست الغرور أو الوهم الذي ينطوي على ادعاء صفات ليست لمدعيها.

إن الغطرسة في جوهرها شيء أصلب وأعمق من الغرور، فهي الشعور بالكفاءة والقوة بشكل ثوري، والإحساس بأن العالم عبارة عن "صدفة" بمجرد ما أزال الإنسان حواشيها الخشنة فلا داعي للاهتمام قط بمصالح أو مشاعر الآخرين.

إن الشاب الذي خاض الحياة بنفسه ونجح بعض النجاح في أعماله لهم الفريسة الهينة الجرثومة الغطرسة. فهو لا يعرف الحياة بعد المعرفة الكافية التي تؤهله لتقدير الثمن الذي سيدفعه في المستقبل نظير خشونة أخلاقه وفظاظة تصرفاته، ربما تصور أنه يلزمه فقط أن يكون شديداً كنابليون حتى يحوز كل مميزات الإمبراطور، وهذا تصور خاطئ ول أنه يغتفر للشاب في أول وثبات نجاحه.

ولكن مما يؤسف له أن الرجال لا يغتفرون ذلك للشاب في

معاملاتهم اليومية، فإنهم يتبرمون مما يظهر من الزهو والخيلاء وهكذا يصبون عليه جام الحقد ليس فقط عند ظهوره بهذا الجرم بل أيضاً لعدة سنوات مقبلة.

على أن هذا المظهر العدائي الذي يبديه الرجال نحو الشبان المبتدئين لا يمكن أن يكون بلا فائدة لو أنه علمهم أن العدل والاعتدال والرقة صفات ذات قدر للشاب الناهض، فإذا تعلموا هذا الدرس يجب أذن أن نشكر السماء حتى من أجل أعدائنا.

إن أبسط نبوة لكبح جماح الشاب المتغطرس في مثل هذه الحالات هي إنذاره بصيغة التأكيد بأنه سوف يحطم تحطيما، في الواقع يندر جداً لمن تغلب على مصاعب النجاح الأولية في جمع المال من طريق شريف أن تحل به كارثة يوماً من الأيام، ولكن لو أن الشاب أنصت إلى "أصوات أسلافه المنذرة بالحرب" وارتعش منها قليلا في فراشه ليلا فأنه لا يكون أسوأ حالا إزاء هذا الطائف، طائف الشك والعداوة.

والحقيقة أنه متى ما تمسك الشاب بغطرسته فمن المستحسن أن تتوالى إلى العثرات في طريقه، فقليل من هذه العثرات يعلمه أن يحترس عند اقترابه من الخطوة الثانية.

إن العلاج الوحيد لهذا هو صدم الغطرسة لا فشلها التام، لأن نكبة تامة يحتمل أن تولد غطرسة اليأس كما يولد الفوز العظيم غطرسة الشعور بالمناعة، فهزة للوراء هي الدواء الشافي لهذا الداء.

ومن الخطأ أن يظن أن الانخذال الوقتي أو الغلطات يمكن أن تخلص الإنسان نهائياً من هذه الرذيلة، فإن الغطرسة في رأيي منسوجة بنفس ألياف النجاح المبكر، واختبارات الشباب الأول لا تكفي لإتمام الشفاء، بل ربما لا تفعل السنون ولا الاختبارات شيئاً من جهة تطهير العقل من هذا الميل الطبيعي، إن بت عندما أعلن جهازاً زهو في الثالثة والعشرين من عمره أنه لا يقبل شيئاً أقل من منصب الوزير كان لا شك متغطرساً، لقد صار الوزير الأول في سنته الرابعة والعشرين ولكن السن والاختبار هذبا عنده هذا التشامخ تاركين له في النهاية تلك البقية الباقية وهي الثقة بالنفس التي مكنته من أن يحتمل الصدمة تلو الصدمة وهو يجاهد في سبيل إنقاذ بلاده.

فالغطرسة التي يلطفها الاختبار والهزيمة يمكن أن تنتج في النهاية أحسن نوع من الأخلاق القويمة، ولكنه أمر يستدعي الشفقة –كما يظهر– أن يتألم الشاب بهذا المقدار نظير تعلمه هذه الدروس، ولكن هل يصغى الشباب لنصيحة الشيوخ؟

إن كان شاب ناجح يدوس على غيره شامخاً يجب أن يتوقع مئات من الأعداء يترصدون حياته فيما بعد ويهاجمونه بغل شديد، فإن هفوة خلقية، أو معاملة تتجاوز حد الإنصاف في شدتها، أو فظاظة غير معهودة– كل هذه أمور تختزن ضد ذلك المبتدئ الناجح في عمله، ومع أنه لا يلتفت لهذه الأشياء في حمو المتعة أكثر مما يلتفت للجرح الذي

يحث أثناء الحرب عند التحام المقاتلين فإن التذكرات التي تخطر على بال المغلوب فيما بعد هي التي تربي الحقد السيء وتؤججه ضد غطرسة الغالب، وبعد أن تمر السنون وتلوح هذه الأشياء كأنها قد بادت وأندثر ذكرها في ظلام عقل الشاب وإذا بلطمة قد فاجأته على غير انتظار من عدو أو ربما من صديق.

عند ذاك يترنح كمن أصابه حجر من الخلف وهو يصيح قائلاً: "لماذا يلطمني خلسة هذا المختبئ في الظلام"؟ ولما يبحث داخل أرواقه عقله يتذكر عملا من أعمال غطرسته مع من لطمه قد مضى عليه وقت طويل، وكان يتصور هذا العمل آنئذ مجرد مجهود شرعي لكفاءته ومقدرته، فيتحقق الآن من أنه يكفر في الكبر عن عدم تبصره في الصغر.

وقد ينهمك في مشروع تعود فائدته على الأمة دون أن يكون له فيه أي أثر من المنفعة الشخصية، ويود أيضاً أن يسالم جميع الناس في طريقه إلى غرضه، ولكن مع ذلك قد يرغم على التطلع بحسرة إلى خيبة آماله وعلى دفع العوض عن أغلاط الشباب وخصوماته.

إن التبصر قد ينافي طبيعة الشباب الذي يرى في لعبته كل شيء خلا القصاص، ولكن لو أنه يقظ فطن في أيامه الأولى لأجتنب هذه العدوات التي لا لزوم لها والتي جاءت بها الغطرسة في تيارها.

ربما يظن أن الإنسان في دور الرجولة قد يحذر الشباب من رذيلة تخطاها، ولكن هذا غير صحيح، فإن الغطرسة بكل أسف لا تنحصر في

عصر من عصور الحياة، غير أنها في مقتبل العمر تكون مجرد ميل من السهل اغتفاره وعلاجه في آن واحد، ولكن إذا طالت حياتها دون التفاف إليها فقد يستفحل أمرها ويستعصى علاجها.وأسوأ من ذلك أنها تحول ذويها غالبا إلى مزيج من الحماقة وثقل المعشر.

وسيبقى من كان هذا داؤه مجلباً برداء التشامخ دون أن يقف على تيار العواطف حوله ودون أن يتصل بأفكار الغير.فتجد مقعده في أي مكان محاطاً بالمقاعد الخالية أو بالمرضى أمثاله.

فالداء في الواقع قد توطن نفسه وقرض عقله قرضاً، وهذه حال لا تقاس بأعداء وغلطات الشباب– إذ أين هذه من ذلك الهجوم النهائي على حصون السلام والسعادة الداخلية التي برأسه؟

إن الرجل المتغطرس لا يمكن أن يجد له صديقاً بين الناس وشر من هذا ألا يكون صديقاً مع نفسه، فالاعتداد الشديد بالذات التي تولده العادة العقلية لا يزعزع فقط أي رأي صائب فيما يختص بقيمة العالم الخارجي ولكنه يعكر صفو الهدوء والسعادة، ويسمم كل ما هو سليم في أعماق الإنسان.

من الصعب نبذ الغطرسة، وأصعب من ذلك أن تكون متواضعاً، ومع ذلك فهذا أمر جدير بالمحاولة.

الشجاعة

يا لها من صفة! تلوح كأنها سهلة المنال، تحمل معها أحلام الفخار، وتهب كل رجل يستحق هذا الاسم القوة على احتمال المخاطر الجسيمة، ولكن الشجاعة في الأعمال مسألة أخرى كثيرة التعقيد فهي تفترض ورطة فكرية ثم المقدرة على التخلص من هذه الورطة في ميدان العمل.

إن الرجل الذي ليس له إلا الشجاعة كثيراً ما تتحول فيه هذه الصفة بكل سهولة إلى مجرد عناد، وهذا العناد –كالضعف الأدبي– عائق للنجاح في الأعمال، ومع ذلك فالفرد الذي لا يملك الشجاعة الأدبية قد لا تفييده أعظم مواهبه السامية أدنى فائدة، فإياك وحماقة الصلابة وهي الرغبة في النضال العقيم، وإياك وحماقة المسالمة وهي الميل للتساهل دائماً أبداً، أنه لا يمكن لأي شاب أن يرجو نجاحاً عظيماً ما لم يوفق عقله بين هذين الحدين بدون إفراط أو تفريط.

إن المساوئ التي يأتي بها العناد الصرف واضحة تمام الوضوح: فالأفراد يتعلقون بعمل من الأعمال إلى ما لا نهاية ولديهم الأمل الشهي بأن الخسارة التي تنالهم الآن قد تتحول إلى ربح غداً، فهم يرجون يوماً حسناً قد لا ينبثق له فجر، وهذه الصورة العقلية وصفها بالغباوة أقرب من وصفها بكلمة عناد وأفضل جداً من كلمة شجاعة، فإن العقل والرأي إذا دعوانا إلى العدول حالا عن هذه المعركة والشروع من جديد في خطة أخرى فالجبن

العقلي –لا الشجاعة الأدبية– هو الذي يشير علينا بالمثابرة على الخطة القديمة، فهنا العناد يعاكس ذلك الترس اللامع الذي يرمز للشجاعة لأن الشجاعة في صميمها لا يمكن فصلها عن الرأي قط.

ولكن من السهل أن تنحدر الأخلاق إلى الطرف الآخر، فإنه يوجد نوع معروف من رجال الأعمال اليهود الذي لا ينجح قط لأنه دائماً متأهب لتسوية مركزه قبل أن تصل الأمور إلى حدها، فعقلية كهذه لديها نصف الرغيف المضمون أفضل دائماً من الرغيف الكامل المحتمل، ولقد ذكرت هنا هذا النوع كي يظهر واضحاً ذلك التناقض.

إن الأعمال العظيمة تحتاج فوق كل شيء لأجل سيرها بنجاح إلى ذلك العقل الشاعر بمجرى الحوادث، المتيقظ بشدة إزاء أخلاق أصدقائه وخصومه وآرائهم المتغيرة، الذي يعرف كيف يتجنب بمهارة صلابة الوقوف في نقطة واحدة، تلك الصلابة التي من صفات أرباب العقائد النظرية. فعقل النجاح ينبغي أن يكون مرناً قابلا للأخذ والرد، يجب أن يعرف بقوة إدراكه ما إذا كان يجذف مع التيار أو ضده.

على أنه من الواضح جداً أن تلك الصفة التي لرجال الأعمال وهي التي تماثل المزاج الفني قد تنحط بسهولة إلى لين في الأخلاق، فتصير قاعدة الحياة عندهم: ألا تحارب قط بل أعمل دائماً لربح جزئي، ففي دور من أدوار العمل تبدو الزهور المبكرة فتانة للقطف، أما طرق النزاع العالية فتظهر صخرية غير جذابة.

في هذا المضمار يمكن أن يبقى العقل بدون عطل، ولكن الألياف الأدبية تنحل وتفسد.. حدث لي مرة في أيام صباي أن كان لي خيار من هذا النوع وذلك عندما أشكل شركة الإسمنت الكندية، فإن أحد المحال التجارية عرض للبيع على الشركة بثمن عال جداً، وكان من الواضح أن ديون هذا المحل لا يمكن تسديدها إلا بواسطة بيعه بهذا الثمن الباهظ، وكان رئيس هذا المحل له صلة بأعاظم رجال المال المعروفين في كندا– أولئك الذين إذا ابتسموا جلبوا الحظ للشاب وإذا عبسوا جلبوا الدمار لمن هم أصغر منهم، وكانت الخسارة التي تعود من شراء محل غير منتج وبثمن عادل كهذا لا تؤثر علي شخصياً إلا قليلاً، ولكن صفقة كهذه كانت تحمل الشركة الجديدة ومساهميها تركة ذلك المحل المعروض للبيع، وهي ديون عليه لا له، ولقد كان من السهل أن أكون ليناً لا صلباً، فإن كل نوع من أنواع الضغط استعمل معي بواسطة أخصائي ليحملوني على قبول الشراء، ولما خاب هذا المسعى لجأ خصومي إلى كل ما في جعبتهم من أسلحة كي يثيروا الرأي العام ضدي بشكل خسيس دنيء، فوجهوا لي الحملة بكل مهارة، ولكن لم يذكروا قط أن رفضي الشراء كان سببه الثمن الباهظ الذي يدفع من حساب المساهمين، فأولئك الذين عجزوا عن أن يغروني على خداع الجمهور صاحب الأموال في الشركة هم الذين لجأوا إلى هذا الجمهور ليحكم ضدي.

وأراني مستعداً لأن أبوح بأن هذه الحملات الظالمة قد أساءت إلي

وآلمتني ألماً مراً، ومع ذلك لست آسفاً على شيء لأن هذه الحملات الشديدة التي كابدتها في بداءة حياتي علمتني فيما بعد أن أعامل هذه الهجمات الوحشية بدون اكتراث على أنه قد يوجد من يقول من أصحاب العقول الماجنة، أنه كان أحكم كثيراً لو أني اتبعت دور المسالمة واللين، ولكن الرأي الداخلي الذي كان محتلا أعماق نفسي دلني على أن كفاءة التصرف في الأعمال كانت تهدم بذلك الخسوف الأدبي وهو الخنوع والتقهقر أمام التهديدات.

فاللين أو المسالمة كانت تصير عادة لا مظهراً من مظاهر الرأي والإرادة، فإن العزم لا يأتي إلا من طريق التمرين. ولسوف يقابل كل شاب في ميدان الأعمال أزمة كهذه وقتاً ما تحدد عمله وتقرر ذوقه الفني في المعاملات.

ولكنه عن حق سيسأل: كيف تساعدني؟ فأنك تقول إن الشجاعة يمكن أن تكون عناداً أو غباوة، وإن المسالمة قد تصير مجرد نوع من الجبن أو الضعف، فأين الشجاعة الحقيقية التي تتفق والمسالمة؟

إن هذا هو السؤال القديم: كيف الجمع بين الثبات ومقتضى الحال؟ لا يوجد جواب لهذا السؤال سوى أن الصفتين يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب في دائرة العقل، فالشخص يجب أن يلبي نداء العالم وفي الوقت نفسه يجب أن يكون شاعراً بشخصيته.

إن الأزمات الخطيرة هي التي تعرض الشاب إلى امتحان الرأي

المؤلم، فعند وقوع هذه الأزمات يبت في المسألة حسب ظروفها الخاصة، ومع ذلك فالقرار النهائي يؤثر على عمله من الأول للآخر، ولكن شيئاً قليلا عملياً ممكن تقديمه كنصيحة: لا تلجأ إلى الصياح والعويل قط، ولا تتكلم أبداً عن سوء الحال، فهذه كلمة لا تستعمل في الأعمال العظيمة.

إن العقل يتجه غالباً عندما يتجه الخلق نحو المناضلة، وهذا الخلاف في الميول يرشد غالباً لأحسن النتائج، فإن الثبات إذا مزج بالتبصر في الأخطار يؤدي حتما إلى الرأي الصحيح، أو بعبارة أخرى إلى الشجاعة الحقيقية، فالرأي العقلي يتوازن مع الجانب الأدبي.

والرجل الذي يستطيع أن يصل إلى هذا الميزان الصحيح ويوفق بين الجانبين المتوازيين من عقله قد يفوز بضربة واحدة بكل ما يلزم ليصيره رفيعاً في كل سبيل من سبل الحياة.

إن الإنسان يتطلع إلى الكمال ولكن لا يقدر أن يبلغه، ومع ذلك فمن هذا النضال إلا وهو مزج حاسة المسالمة بالثبات تتولد الشجاعة الحقيقية، والشجاعة هي النجاح.

أهلية التاجر

هي القوة التي تسيطر على مهنة التاجر، لها في دائرة البيع والشراء ما لغريزة جمع المال في دائرة الأعمال- هي الصفة السائدة بين الصفات.

فالشاب الذي يتوق أن يكون تاجراً ناجحاً يجب أن يحاول ترقية هذه الصفة إلى أعلى درجة ممكنة، فأنها ليست صفة مكسبة فقط بل بدونها لا يمكن أي إنسان أن يرتقي تمام الارتقاء في أعماله. ومن الخطأ الجسيم أن يتصور أن هذه الصفة عبارة عن البيع بأكبر ربح ممكن، إن هذا التصور مجرد غواية يتعرض للسقوط فيها كل شاب في بداءة عمله، قد يكون أقل عرضة لهذه التجربة إذا كان مستخدما في محل كبير محدد الأثمان، ولكن إذا تركت له المسئولية ليحدد الأثمان بنفسه فإنه يخدع بسهولة من حيث الحصول على ربح باهظ كلما سنحت الفرصة لذلك.

فقالوا إن التاجر يشتري الصنف بالقيمة التي يستحقها غالباً ولكنه يستطيع أن يبيعه بثمن أعلى من طريق المغالطة في قيمته، فكل ما كبر الربح كبر الكذب، وكل ما زاد الكذب زاد نجاح التاجر في عمله!

وهذه السفسطة التي سقط فيها العالم القديم سببها جهل مبادئ الاقتصاد الرئيسية، فإن هذه المبادئ تبين أن الثمن الحقيقي لصنف من الأصناف هو قيمة الإنتاج مضاف إليها قيمة الخدمات التي ساعدت

على عرضه في السوق، وبمعنى آخر أن الربح الذي ينتج من البيع ما هو إلا قيمة هذه الخدمات.

ومع ذلك فقد دل الاختبار على أن البيع بمقادير قليلة وبربح فاحش سياسة خاطئة لا تعود بفائدة ولا تصلح أن تكون أساساً للأعمال العظيمة، وإن الذي يجب أن يكون هو البيع بربح قليل ومقادير كبيرة، فهذه أحسن وأضمن قاعدة للتاجر.

كان لي مرة حصة في شركة سيارات، وهذه الشركة أثرت من طريق البيع بكميات قليلة وبثمن مرتفع جداً، فاقترحت على المدير أن الشركة تربح أكثر وربحاً مضموناً لو أننا خفضنا الأثمان حتى يؤدي ذلك إلى ازدياد المبيعات، فأجابني أن هذا غير صحيح وكانت حجته في ذلك أن سياراتنا من نوع فاخر، فإذا رخصنا ثمنها لدرجة أن تصبح عادية فإن الناس لا يفضلونها على غيرها، وإذ رفض اقتراحي بعت حصتي في هذه الشركة، ولكن المدير برهن على صواب رأيه إذ أن بيع السيارات وأرباحها العالية بقيت حافظة مقامها الرفيع.

على أن هذه مسألة استثنائية، وللآن ما زلت أقاوم كل أسلوب اقتصادي من هذا النوع.

على أي حال سواء أكان التاجر يتاجر في عدد قليل من الأصناف الفاخرة أو في كميات كبيرة من الأصناف الرخيصة فمصلحته أن يبيعها وهنا مجال أهلية البائع التي مصدرها قوة الأقناع لا موهبة عدم الأمانة كما ظن الفلاسفة.

فعلى أي أساس تقوم الأهلية؟

على اتحاد صفتين تظهر أن متناقضتين الواحدة للأخرى:

قوة الشخصية من جهة، وقوة التصور على مجاراة عقل الشاري – وهذا ما يسمى باللباقة– من الجهة الأخرى، وكل شطط في هاتين الصفتين نصيبه الفشل، فالنجاح لمن توسط هذين الطرفين.إن الشخصية التي من مميزاتها القدرة على لفت الأنظار والتأثير والتفنن الذي لا يحد، لهي صفة جوهرية للبائع وبدونها لا يقدر أن يتقدم إلى الأمام.

ولكن من الممكن التوسع في هذه الشخصية إلى أن تتحول إلى نقص إيجابي، فإن البائع يعمل تأثيره ويوضح مسألته ولكن تشط به قوته إلى أمد بعيد فيعجز تماما عن أن يجاري حركات المشتري العقلية، وفي الدقيقة الفاصلة ينقطع الاتصال بين البائع والمشتري ولا يتم البيع. وهذا هو أحد الطرفين الذي يمكن وصفه بالإفراط في الشخصية.

أما الحالة الثانية أو الطرف الثاني فهي حالة البائع الذي له المقدرة على تتبع عقل الشاري في لفه ودورانه، ولكن في مسلكه هذا قد يخسر العامل الأهم في المساومة إذ يعجز عن أن يؤثر التأثير المطلوب لأن عقلا آخر يستولى بتأثيره عليه قهراً منه، ذلك لأنه يظهر بمظهر التابع لا المتبوع وهذا قاتل للنجاح، فإن الشاري يتحول بسرعة إلى المراوغة ويفقد البائع قدرته على المجادلة.

وقد قيل أن البائع كنديم الملك والشاري هو الملك، ولكن النديم

العظيم هو الذي لا يتمسك. تلك هي مساوئ النقيضين، فوجهة البائع الصحيحة هي أن يحوز القوة والإقناع أو الشخصية واللباقة، وأن يسير كما لو كان فوق حبل مشدود متمايلا تارة هذه الجهة وتارة الجهة الأخرى حتى يحفظ توازنه وهكذا يجب أن يتحصن كمن يقدم على مبارزة مميتة، فيبدي آنئذ القوة والحيلة بأن يسمح لشخصيته أن تلعب دورها بكل حرية حتى تؤثر تأثيرها المطلوب ثم يتجه بكليته بعد ذلك إلى ممازحة المشتري والثناء عليه.

والآن نعود فنسأل هل من الممكن جمع هاتين الخصلتين المتضادتين اللتين تكونان البائع؟

ربما لا، ولكن إذا وجدت الخواص اللازمة —وهذه توجد في تسع حالات من عشر— فإن القوة الغريزية ممكن ترقيتها إلى ما لا نهاية.

إن معرفة النفس والثقة بها يجلبان القوة التي تطلبها الأخلاق، كما أن اختبار الناس والحياة يعلمان اللباقة وحسن الذوق، ومتى كان الإنسان مستعداً أن يثقف أخلاقه ويزيد الثقة فيه وأن يطبق تصوراته على اختباراته فإنه يستطيع أن يجعل نفسه تاجراً حقيقياً.

صناعة التاجر ليست بالمطمح الصغير ولا بالغاية الضئيلة، أنها الثانية بين الفنون التي قادت الإنسانية إلى طرق المدنية، هي ليست الأولى لأن الرجل الذي يستطيع أن يعمل بيديه الأشياء الجميلة الآلات العملية التي تتطلبها الرغبات الإنسانية، والرجل الذي يستطيع أن يساعد

الأيدي العاملة في صنع هذه الأشياء – هو الأول في قائمة الذين يخدمون البشرية، فالصناع والمنتجون يقفون أولا، ويتلوهم البائع في قائمة رجال التمدين الذي يمتد عمله إلى بحار الاقتصاد المجهولة حيث يقرب الأفراد ثم الأمم بعضها من بعض بواسطة تبادل المتاجر.

فالصوريون (أهل صور) الذين باعوا الحرير والنقود الشرقية نظير قصدير كورنوال، وتاجروا في أسواق صور والإسكندرية، والتجار الذين أخذوا الجلود والكهرباء من بحر البلطيق بدلا من منتجات حضارة البحر الأبيض المتوسط، والرجال الذين نظموا طرق القوافل فيما بين الصين وغرب أوربا وعقدوا الصفقات في روما وإسطنبول، وكذلك رواد البحار الذين خاطروا إلى أمريكا والشرق، والتجار الذين عاملوهم في لندن – هؤلاء كانوا آباء وجدود تجار اليوم، وقد صيروا الإنتاج ممكناً ومكسباً بواسطة بيع منتجات هذا الصانع إلى ذاك وذلك الإقليم إلى غيره.

فالأفراد والأمم يشتغلون بأيديهم من جهة والوسطاء يعملون برؤوسهم من جهة أخرى ليضعوا مصنوعات هذه الأمة في حيازة الأمة الأخرى، والعكس بالعكس، فإذا كانت منشئات بلد من البلاد أو حضارة من الحضارات تتوقف على المنتج فإن نجاحها الاقتصادي ومكانها بين أمم العالم يتوقف على التاجر أو بعبارة أخرى على البائع.

التوفير

إن التوفير عادة يكتسبها القليل جداً من الرجال وهؤلاء هم حكام الأرض – لا ينازعهم أحد سوى الذين قد ادخر أسلافهم لهم. ولقد حاولت مراراً أن أقدر النسبة بين الذين يقتصدون والذين لا يقتصدون وما يمكن أن يكون الباعث في كل حالة لهذا الاقتصاد، فوصلت إلى هذه النتيجة وهي أن عدد المقتصدين من الرجال واحد من خمسة، وحتى من هذا العدد يجب أن يستبعد أولئك الذين يقتصدون لا ليستثمرو أو ليزيدوا رأس مالهم وإنما احتياطياً للطوارئ، فهم يخشون المرض أو سوء الحظ أو الموت العاجل، ولكي يأمنوا هذه الشرور يقدرون الحد الفاصل بينها بمبلغ معين إذا ما حصلوا عليه كفوا عن نضالهم، والواقع أن هذا النوع من الاقتصاد لا يؤدي إلى تكوين رأس مال قط.

إن النسبة المئوية القليلة من الرجال الذين يقتصدون بنية توظيف مالهم تراهم يكتسبون بسرعة عادات محددة عامة يبعثهم إليها الميل الطبيعي للاقتصاد والغرض منه، فالوقت في نظرهم هو المال، ولذا يشتغلون باطراد بدون أدنى فكرة عن الراحة، فطالما لديهم أي عمل تراهم متأهبين لتأديته كالتلميذ الذي لا يترك درسه حتى يجيده حفظاً – محتذيين في ذلك مثال الفلاح عند الحصاد الذي يستمر في جمع الحنطة حتى يحتجب النور ويعيد الكرة ثانياً عند بزوغ الشمس، ففي

أحسن أوقات التجارة يشتغلون بشدة وفي الأوقات السيئة يشتغلون أشد، أنهم يعرفون بالاختبار متى تحل أزمنة الرخاء التي تتلو الكساد، وهكذا يجمعون حصادهم من كلا الحالين.

أما النوع المعارض لهذا فهو الرجل المولع بالقول: "إن العالم مدين له بمعيشته"، مثله مثل الطفيلي الذي يعيش حملا على المجتمع، على أنه لا يفيد حتى فائدة الدودة – لأن هذه تؤدي على الأقل وظيفتها في الحياة.

إن القائل بهذا مخطئ ولا شك، فإن العالم غير مدين له في شيء، بل بالعكس هو مدين للمجتمع بثمن وجوده في الحياة، مثل هذا الإنسان إذا اشتغل تراه في الأوقات الحسنة لا يشتغل أكثر من أربع ساعات لأن عمله لا يتناسب مع أجره، وفي الأوقات السيئة لا يزيد أيضاً عن أربع ساعات لأن الصناعة لا تسمح بأكثر من ذلك.

وهناك نوع وسط بين الأثنين، وهو الذي لا يقتصد شيئاً – لا بسبب انعدام الميل عنده ولكن بسبب انعدام الفرصة.

وتحت هذا النوع مسائل عديدة مؤلمة أكثر مما يظن: فأولاً يوجد الرجل الذي لا تساعده صحته على العمل بكل قواه، وثانياً يوجد من له أم أرمل أو أخوة وأخوات قصر مكلف بإعالتهم وتربيتهم، وهذا هو المثل الأعم، فما يوفره هذا الرجل لا يذهب إلى تكوين رأس مال يصيره غنياً وإنما يذهب لمساعدة الآخرين ومع ذلك فشخص كهذا يقوم بخدمة لا تقدر من حيث إنكار ذاته وتضحيته التي يقدمها للعالم في هذا المثال الجميل.

ولنعد الآن للنوع الأول: ذلك المدخر للمال والعامل للثروة المادية، السائر على عكس طريق المتلاف المبذر، أنه عند انتعاش السوق يضاعف أوقات عمله بقدر ما في إمكانه إذ في هذا الفصل الذاخر بالحركة يسهل الحصول على المال ومن هذا الفيضان يصل إلى الثروة إما بواسطة استثمار أمواله أو من طريق ادخارها نقداً.

وفي كلتا الحالتين يستطيع أن يجابه أوقات الكساد القادم بكل سكينة متى اتخذ الاحتياط العادي في أعماله، نعم في زمن الكساد تضعف قوة الاستغلال الرابح، ولكن هذا الضعف ما هو إلا طور وقتي، فإن قيمة رأس المال الحقيقية تظل كما هي وسوف تستعيد قواها للربح مع الزمن.

أما في حالة ما إذا كان الرجل المقتصد قد ادخر أمواله نقداً فمكافأته سوف ينالها بمجرد عبور عصر الرواج وحلول زمن الكساد الذي يزيد قيمة كل ما أدخر وجمعه، وليس من الصعب إيجاد مثل محسوس، لذلك فالجنيه في أواخر سنة ١٩١٩ كانت قوة الشراء التي له أقل بكثير مما هي اليوم لأن الكساد خفض الأثمان، والنتيجة أن الشخص الذي اقتصد أيام الرواج يجد أن ما اقتصده قد ارتفعت قيمته لارتفاع قوة الشراء.

على أن التحول من الكساد إلى الصعود يسمح أيضاً بأحسن الفرص لاستثمار الأموال، فإن مياه التجارة والصناعة لا تكون قد عادت إلى مجاريها بعد، وفي هذا الوقت يجد كل مدخر عملا رابحاً لتوظيف أمواله.

المقتصدون إذن يربحون في الأوقات السيئة كما في الأوقات الحسنة، وفي نظير مجهوداتهم يحملون فوق ظهورهم أحمال الدولة الرئيسية.

ولا شك أنه يوجد بجانب هؤلاء فئة ذات قيمة من رجال الأعمال والفنون الذين يشتركون بدرجات قليلة في دفع ضرائب الإيراد من طريق غير مباشر، ومع ذلك فالحقيقة تبقى قائمة وهي إن الجزء الأكبر من الضرائب يتوقف على التوفيرات المستثمرة، أو بمعنى آخر على أرباح الصناعة، وأهم عامل في خلق هذه الثروة هو ذلك الرجل المقتصد الموظف لما يقتصده، نعم عليه أن يدفع ما يقوم بإدارة أعمال الحكومة ولكن في إمكانه أن يتمم ذلك من فائض نشاطه وثروته. وليس ثمة داع للعطف على دافعي هذه الضرائب العالية ورسوم التركات، ولا هم أنفسهم يلتمسون هذا العطف، فإنهم في تعريض مناكبهم لهذا الحمل إنما يقوون عضلات ظهورهم وينظرون بكل رصانة إلى جميع نظم الحكم وفرض الضرائب – ما عدا إنكار الحق عليهم في العمل والتوفير وإبداع الطرق لجلب المال.

الفزع

الفزع أو الذعر هو الخوف الذي يجعل جمهوراً عديداً من الناس يندفعون إلى الهاوية بدون سبب معقول، أنه أحساس المجموع الذي لا يصحبه العقل، وحيناً ما يصطدم الفرد في عمله بهلع من هذا النوع، وإذا كان لا يعرف كيف يتدبر في أمره فأنه يداس في الوحل.

وقد يقهر قبل غيره أصعب الناس مراساً: فإنه يقول وقد يكون مصيباً في قوله أنه لا يوجد سبب حقيقي للاضطراب، وهكذا يستعد للعبور وسط العاصفة ويرفض أن يطوي شراعاً واحداً من شراعات سفينته المالية، وينسى أن مجرد قيام الرعب في رءوس الغير هو في ذاته مؤثر في الحالة– كالتأثير في القيمة الحقيقية للسلع التي يضربها السوق فتنحط وتهان– ذلك لأن عالم الأشغال له جو حقيقي ولو أخطأت الآراء التي أوجدته.

وفي مواجهة حالة من حالات الفزع يجب قبل كل شيء التأكد من حقيقة الأمر وبعد ذلك يعمل حساب أفكار الناس المغلوطة، والعقل الذكي المرن هو الذي يحسن التصرف في مثل هذه الظروف فإنه يخترع أسلحة وحيلا جديدة لمواجهة كل طور جديد من الأطوال، وكما يقول الحكيم: "كل ما صادفتك حالة شاذة تصرف فيها بكيفية شاذة"، وهذه نصيحة سديدة.

على أن الفزع في الأعمال قليل الوقوع، فقد يصادف الإنسان مرة في حياته. ولكن الفزع الذي يقوم في عقل الفرد هو ذلك الخطر الداهم، فكم من الناس يخافون من وقوع كارثة مالية ويسمحون لهذا الخوف أن يقرض في عقولهم كما تفعل الفأر في الظلام، إن الذين لا يرون إلا الظواهر في ضوء النهار يجزعون كل الجزع لو علموا عدد الذين يقضون ليلهم في هم وأرق– يرتعشون وجلا من وقوع كارثة يتوهمونها قد لا تحدث قط.

هؤلاء هم الناس الذين لا يمكنهم حفظ قلوبهم هادئة، لأنهم مفتقرون إلى تلك الشجاعة التي تصون الرجل من أن يصير فريسة لتصوراته العصبية.

أنهم يبيعون مشروعاتهم الصحيحة بسعر منحط جداً وذلك لأن أعصابهم لا تستطيع المقاومة، والذين يشترون منهم أولئك هم الرابحون، وإذا جاز أن نشفق على البائعين فلا يمكن أن نلوم المشترين، فشجاعة الرأي يحالفها الربح،.

إن هؤلاء المتشائمين يتكهنون بكل احتمال وينظرون إلى الأمام أكثر مما يجب، ولهذا السبب ينسحبون من الرعب السائد في عقولهم فشلا حقيقياً كان من الممكن اجتنابه بواسطة شيء قليل من الهدوء والشجاعة، فبمجرد ما يصاب الفرد بهذا الاضطراب الداخلي يصبح غير قادر على استخدام عقله لأنه يقتنع مثلا، إن المادة الأولية لصناعته قد

قل وجودها فيتصور أن الطلبات التي تعاقد عليها سوف لا يستطيع إنجازها، مع أن الخطر من نقص المادة يكون غير محتمل، ولكن نظراً لفرط اضطرابه يقدم على الشراء بكميات جسيمة وبسعر عال جداً، وهكذا تصير إجراءاته محكومة بإحساسه الهائج لا بعقله، فبدلا من أن يلجأ إلى الرأي في عمله– كما يفعل صاحب المزاج المعتدل– يسترسل في تهوره تحت عامل الخوف الأعمى لا الاختبار الصائب.

إن أحسن وسيلة لمن يكون في هذه الحالة العقلية هي أن يؤخر قراره النهائي حتى يدرس المسألة درساً صحيحاً، فإذا ما عمل ذلك فإنه يجد عند التأمل أن حقيقة المسألة أقل خطورة مما صوره له عقله المريض المتأثر.

على أن النتيجة التي تتبع هذا هي أن الشخص الذي لا يستطيع أن يركن إلى رأيه إلا بعد وقت ما يجب أن يوضع في المرتبة الثانية بالنسبة لصاحب الرأي السديد الذي يكون رأيه في لحظة كالبرق، أنه دائماً يأتي متأخراً يوما بعد الموسم وهذه خصلة قاتلة للنجاح الحقيقي.

فبأي سحر يمكن لهذا الضحية أن يطرد من رأسه ذلك الرعب الغامض الذي يقلق خاطره باطراد؟ لا شيء ينزع هذا الوسواس الذي ركزه القلق الحاد في ذهنه سوى بذل الجهد العقلي والنفسي معاً بكل ثبات وحزم.

وهاك وصفة علاج بسيطة أقدمها أنا شخصياً: عندما تحس بدبيب القلق– فكر في أشد قلق صادفك في الماضي، فبدلا من أن تكون أزمة

واحدة في العقل تكون أزمتان وقد تتغلب على الأزمة الحاضرة لو أنك رددت في نفسك القول الآتي: إن الأزمة الماضية لم يصادفني أسوأ منها ومع ذلك سرت في وسطها وانتصرت عليها، فحري بي أن أنتصر على هذه الأزمة وهي أقل خطورة وشدة.

إن الإنسان إذا أعتزم أن يكون له ذلك القلب الجسور الشجاع يستطيع أن يقاوم عواصف الحياة التي تهب حوله من آن إلى آن "أنها طبيعة النفوس المتوترة –كما يقول اللورد روزبري– أن تزهو بدون مناسبة وتكتئب بدون مناسبة".

فالرجل الذي يستطيع قهر هذا التطرف ويحوله إلى الجهاد العادي لهو الرجل الذي يكون سيداً في دائرة نفسه، وعلى ذلك يقدر أن يتحكم في التيارات الشديدة التي تتدافع من الخارج، أنه يستطيع أن يرتفع إلى ذلك العلو من السكينة التي أظهرها اللورد ليفره يولم، الذي قال عندما هدده الفزع في أعماله: "أجل إذا سقطت السماوات فحتى القنابر لا شك تقتل" فالاضطراب سواء كان خارجياً أو داخلياً فرصة اختبار وامتحان للجسم والفكر والنفس في وقت واحد، والاضطراب الداخلي شر لا يمكن البرء منه إلا من طريق تأثير الإرادة والعقل بكل ثبات على تلك النفس الحائرة.

إن الفزع العالمي بمجرد حصوله يهز أسواق العالم كالعاصفة الراعدة التي تكتسح أمامها كل ما يصادفها فوق قمم الجبال إلى باطن مجرى الأنهار إلى آخر مدينة تلوح على الخليج، فقد تخرج في لحظة

من البرية وتندفع بسرعة نحو البحر كالحلم نزول، ولكن لها قوة الحقيقة، أنها عبارة عن ريح ومطر، ومع ذلك فأخف مادة تسوقها عاطفة الفزع القوية يمكن أن تقتلع أصلب المواد كما تقتلع الزوبعة الأشجار الشامخة وأحجار المنازل المشيدة، وتحول حياة الرجال إلى قفر ويأس، وإذا ما مرت يظهر كل شيء ساكناً ولا يبقى إلا التحطيم البشري ليدل على قوة الزوبعة التي عبرت، وحتى تواجه هذه الزوابع الفجائية التي يظهر كأنها جاءت من الخلاء يجب على الرجال أن يكون احتياطهم من خلق وعقل في أيديهم وتحت تصرفهم، والاحتياطي الأول هو العقل، فلا تدع قط مجرد الكبرياء أو العناد يقف في طريق الانحناء أمام هذه العاصفة، إن ثبات الأخلاق في هذه الحالات المفزعة يجب أن ينعكس من الداخل إلى الخارج وأن يتحول إلى ذلك الذكاء المرن الذي يجد في الحال الهامة وشجاعته في استنباط وسائل جديدة لمعالجة الحالة.

إن شجاعة القلب لا تترك حيلة من حيل الذكاء بدون تجربة، ولكن الذكاء والشجاعة كلاهما يجدان معنيهما الحقيقي في صحة لم تستهلك موارد الجسم بعد.

إن الثبات الذي ليس عناداً، والصحة التي لم توهنها السقام، والمسالمة التي ليست عن ضعف، والإقدام بدون طيش– هذه هي الصفات التي تحفظ الناس في الأيام العصيبة عندما يكون هبوب أشد العواصف على الأبواب.

الكساد

الكساد ليس بالكلمة التي ترن رنيناً ساراً في آذان رجال الأعمال، مع أن الواقع ليس هكذا سيئاً.إن الكساد يختلف من كل وجه عن الفزع فهو ليس بالريح العاصفة التي تهب فجأة والحال هادئ –بدون تعقل في هبوبها أو اجتيازها– ولكنه شيء ممكن رؤيته قبل وقوعه ويجب أن يبصره كل سائح فطن فوق مياه الأعمال، والنوتي الحكيم هو الذي يطوي قلوعه قبل اشتداد الرياح.

وليس الكساد نكبة في حد ذاته: فإنه علاج شاف تستخدمه الطبيعة عند تضخم الأعمال– في التجارة والصناعة ومع الفراد أيضاً، فإن ذلك الفرد الباسم الذي يرى إن كل أبواب الأمل مفتوحة أمامه وإن ضوء شمس حياته سيستمر خالداً سوف يقابله رد فعل فيدفع عن ساعات انتفاخه وآماله الحسنة ساعات نظيرها مظلمة– وذلك عندما يتطلع حوله فيرى كأن العالم كله منهمك في مؤامرة ضد سعادته.

أنه أسلوب صحي –وإن كان غير سار– وثد طبق بلا شفقة منذ القدم في جميع أحوال العالم. على أن الرجال اليقظين يجتهدون أن يزنوا اتجاه الأعمال ليستخلصوا العلاقة العادية بين الإنتاج والاستهلاك– فإن القوانين الطبيعية لا تنفك تعمل عملها بكل نظام طبقاً لقاعدة العرض والطلب، فارتفاع الأثمان يبعث على الإنتاج كما أن تضخم البضائع فوق الطلب يضرب البضائع ويحط الأسعار.

ومع ذلك فالتحول من الرخاء إلى الكساد ليس بالشر المستطير– ذلك لأن النجاح يبعث على الإسراف، فكلما أطردت أوقات الرخاء انعدم الميل إلى الاقتصاد أو الاستنباط، فالبيوت التجارية التي تبيع البضائع بمجرد صنعها بربح مرتفع لا تهتم بتسيير أعمالها على أساس اقتصادي محض، ولا تفكر في فحص طرق الإنتاج إلا عندما يلوح العسر في جو الأعمال، عند ذاك ترحب بكل وسيلة تؤدي إلى تخفيض التكاليف ويبحثون عن أي اختراع جديد يؤمل فيه الاقتصاد.

فالكساد هو الدواء المطهر للأعمال لأن السنين الهزيلة تهدم المستودع السمين الذي جمعته سنو الرخاء، وهكذا يتدرب العامل ليصير مرة أخرى مستعداً للنضال، والذين يدركون هذه الحقائق يجب أن لا يتذمروا كثيراً من الأوقات السيئة، فقد كان من الواجب عليهم أن يفكروا في أن هذه الأزمنة من المحتم وقوعها وأنهم لم يدخلوا في جنة خالدة من حيث الأسعار المرتفعة.

في مثل هذه الظروف ترفع الإرادة الحرة صاحبها فوق تقلبات السوق، أنه لا يخضع لمختلف الطوارئ فيظهر سامياً مفتخراً مكتئباً تارة أخرى، فإذا لم يقدر أن يكون سيداً للسوق فعلى الأقل سيداً لمصيره.

إذن كيف يتصرف الرجال في حلقات التجارة المتعاقبة ازدهاراً وانحطاطاً؟

النظرية المشهورة في هذا الصدد هي: "بع عند ارتفاع السوق

واشتر عند هبوطه" على أنه يكون أقرب إلى السلامة ذلك الذي يرفض هذه النظرية التي أكل عليها الدهر وشرب، أو يتقبلها ولكن مع تحفظات هامة، ونصيحتي التي أقدمها هنا تنطبق على ذوي المتاجر الكبيرة والصغيرة على حد سواء. إن وجه الخطر في تلك النظرية هو أن الذين يعملون بها يسيرون دائماً أبداً عكس التيار.

خذ مثلا مسألة الشراء عند هبوط الأسعار: لا يمكن القول طبعاً بالامتناع عن الشراء بتاتاً فهذا أمر مستحيل– لأن الأداة الصناعية يجب أن تبقى متحركة وإلا اعتراها الصدأ وعجزت عن الحركة في أوقات الرواج، ولكن ليس من الحكمة في شيء الدخول في مشروعات جديدة ومشتريات جسيمة عندما يكون دولاب الأعمال التجارية والمالية والصناعية راكداً لا يتحرك.

إن الشراء في هذه الحالة شبيه بعمل الزارع الذي يبذر في قر الشتاء البذور التي تنضج نفس النضج إذا بذرت في فصل الربيع، وبمعنى آخر يجب الشروع في هذه الأعمال الجديدة عندما تنتهي حالة الكساد، فإن الصقيع عندئذ يكون قد ذاب ويمكن الزارع أن يخرج ليزرع، وذلك هو الزرع الذي يأتي بالأثمار.

فالشراء قبل الأوان إذن عبارة عن نفقة بدون مسوغ نظير حفظ البضائع شهوراً عديدة.

والشطر الثاني من النظرية –وهو البيع عند ارتفاع الأثمان– رأي

صحيح وخليق بالأتباع، ولكن.. لا توقف البيع إذا أحجم السوق عن الصعود.

إن جزءاً عظيماً من فن الأعمال يتوقف على كفاءة البائع وتنظيم المبيعات، ولكن تنفيذ خطة معينة وهي البيع بمقتضى رأي نظري لهو مجرد غباوة: فإن العدول عن البيع عند نزول الأسعار وانتظار يوم حسن– ربما لا يأتي– معناه هنا أيضاً تكبيد التاجر حمل هاتيك العروض عدة شهور بدون موجب لذلك.

يقولون في كندا: "أمض ما دام المضي كسناً"، وهذه العبارة – ويقصد بها الدعوة إلى البيع– ترجع في أصلها إلى حالة الطرق، فإنه عند حلول الشتاء تكون الطرق صلبة ومستوية ويمكن للمركبة الثلجية أن تسير بسرعة فوق سطحها الراسخ، ويبقى هذا الحال ما بقى سقوط الثلج مستمراً، ولكن عندما ينهزم الشتاء ويكف الثلج عن السقوط تسير المركبة قفزاً ونطاً من جراء الحفر الكبيرة التي بالطرق، وهكذا تقذف براكبها من جانب إلى آخر وتصدم برأسه في حواجزها، وهذه الحالات المزعجة يحيونها بكلة شكر خاص يقولها الراكب عند خلاصه من ضيقه ورجوعه إلى سكينته العادية.

فالرجل الذي لا يبيع أبداً في حالة هبوط السوق هو الرجل الذي لا يريد أن يجابه حالة كهذه فيتضايق ثم ينجو فيشكر، أنه يمضي ما دام حسناً غير أنه لا يقبل النتيجة الملازمة لهذا الرأي وهي"– "ولكن لا

تقف عندما يكون المضي سيئاً"– ذلك لأن ليس له من العزم ما يساعده على مواجهة الصدمة والقيام منها باسماً.

لا تخف من أن تبيع عند نزول السوق وإلا فستبقى خائفاً أن تبيع مطلقاً حتى ترغمك الأحوال على البيع بأثمان أوطأ بما لا يقاس وذلك لتكدس البضائع التي يجب تصفيتها بأي ثمن كان.

أنه في هذا الوقت تماماً –وقت الكساد– يجب على رجال الأعمال أن يعجلوا البيع وينظموا طرق بيعهم إلى أقصى حد، فإذا أمكن إقناع رجال المال والصناعة والتجارة بإتباع هذا الأسلوب عند هجوم على الأعمال فإن كل جهد يبذل في هذه الوجهة يساعد على تخفيف وطأة الشر بتقصير أوقات السوء، وإذا ما خف رصيد البضائع المخزونة عندئذ تعبر الشتاء ويعود الصيف ثانية لعالم الأشغال والمشروعات.فالبيع هو الدواء الأخير القاطع للكساد.

الفشل

إن أصعب شيء في الحياة هو الفشل، ومما يؤسف له أن الفشل غالباً نتيجة خطأ أو سوء فهم ممكن اجتنابه، فمع استثناء ذلك الرجل المجرم المتلاف بطبيعته –وهو استثناء نادر– فليس ثمة داع لهذا الفشل.

إن كل إنسان أمامه عمل في الحياة، وعلى أسوأ حال يقدر أن يجد له مكاناً في النظام الاجتماعي– مهما كان صغيراً– يمكن أن يوفق فيه.

إن التعب في هذه المسألة كثيراً ما يرجع إلى احتياج الفرد للوقت والفرصة ليكتشف اتجاه ميله الطبيعي، فإنه ينشأ من بيئة أو طائفة معينة، وسط ظروف معينة، وهذه العوامل التي تحيط به في الشباب تملي عليه بطبيعة الحال اختيار ما يوافقه من العمل، وفي أحوال عدة يكون غير موفق في اختيار طريق حياته وبعد أن يكون قد باشر عمله تقوم العوائق حول قدميه ويكون من الصعب أن يتخلص من هذا العمل وأن يبدأ عملا آخر جديداً.

وهذا الاختيار السيء ممكن أن لا يكون كثير التشعب: فقد يحسن الشاب اختيار العمل الصحيح الذي يوافقه ولكنه قد يخطئ في اختيار أحد أقسام العمل، وعلى أي حال فالنتيجة واحدة– فإن رب العمل سوف يحكم عليه بعدم لياقته، أو على الأكثر أنه عامل من الدرجة

الثانية، وأسوأ من ذلك أن يعرف العامل نفسه أنه خاب في مسعاه، وأنه على أحسن تقدير لا شيء أمامه سوى عمل متوسط، فإذا سلم بهذا فتسليمه ما هو إلا الفشل بعينه، إن مياه القنوط تتجمع فوق رأسه والنتيجة قد تكون دماراً.

إن هذه الغلطات مصدرها التصور الخاطئ عن طبيعة العقل البشري فإننا معرضون لتصديق تلك العبارة الخيالية التي يسمونها "الكفاءة العمومية" والتي يتوقعون ظهورها تحت أي حال وفي كل حال، فأصحاب هذا الرأي يقولون أن الرجل الماهر في عمل ما أو المفلح في ظرف ما يجب أن يكون ماهراً في أي عمل ومفلحاً في أي ظرف، وهذا خطأ ظاهر.

فإن العقل البشري موصد ضمن أقسام متفرقة، وغالباً كل قسم منها يستطيع أن يقوم بوظيفته مستقلا عن الأقسام الأخرى، فليس لأحد أن يحلم بأن يقيس كفاءة الفرد من حيث محبته العائلية بكفاءته الخطابية، أو ميوله النفسية بغريزته العملية، وما يصدق عن الفوارق العظيمة فيما يختص بالنفس يصدق بالمثل عن ذلك الجزء الخاص من العقل المشتغل بالمسائل العملية.

فالتفوق في نوع من الأعمال ليس دليلا على الكفاءة العامة، أنه استثناء لا قاعدة، وأي رأي يخالف هذا يمكن أن يؤدي إلى أغلاط خطيرة في آراء الرجال وبالتالي في تدبير أعمالهم.

أنك لا تجد فناً من الفنون يستطيع كل من الفقيه أو السياسي أو

الصحفي أن يتفوقوا فيه مثل تفوقهم في سرعة الوقوف على دقائق مسألة منطقية، فإنهم يستخلصون ما تنطوي عليه المسألة من حسنات وسيئات ويضعون نتيجة بحثهم في قالب واضح مقنع.

والذي ينصت إليهم يساق إلى الاعتقاد بأن هذا البحث المنطقي دليل على المواهب العمومية العامة التي تؤهل صاحبها لأن يدير عملياً – بغاية الإتقان وبمقدرة فائقة– المسائل التي يتكلم عنها، والواقع أن هذا حكم خطأ: فإن ذلك الباحث المدقق يفشل عملياً في تحقيق ما كان يرتأه نظرياً.

ومع ذلك فليس من الصعب العثور على عكس هذا الرأي، فالأعظم بين محرري كبرى جرائد لندن يعجز كل العجز عن تقدير أمر من الأمور كما يجب وفهمه فهما منطقياً إذا ما عرض عليه، ولكن إذا أنت قدمت له المادة الأولية والأدوات اللازمة لمهنته فإن استعداده الذي لا ريب فيه– ذلك الميل الغريزي للأخبار– يساعده على إخراج صحيفة تفوق بمراحل تلك التي يمكن أن ينجزها أكبر تحرير يرتككن على منطقه.

على أننا إذا ضربنا صفحاً عن بضع استثناءات نادرة، فإن الموسيقي غير الجندي والمحامي خلاف السمسار، كما أن الشاعر ليس برجل الأعمال، ولا السياسي برجل الإدارة الماهر فأي فرد تاه في شبابه وأخطأ في اختيار مهنته وهكذا فشل في حياته يمكن أن يحوز نجاحاً

وافراً في عمل آخر من الأعمال المختلفة– التي تتشعب ليس فقط في الدوائر الرئيسية بل أيضاً في الأقسام الفرعية لدائرة عمل واحد.

ولنأخذ مثلا عملياً واحداً بياناً لذلك، وليكن القسم التجاري والقسم المالي: في الدائرة الأولى يحتاج البائع قبل كل شيء إلى روح التفاؤل، وهذه الروح إذا انتقلت إلى الدائرة المالية فقد تهدم البيت التجاري هدما، فالنجاح في فرع ما يمكن أن يكون فشلا تاما في فرع آخر والعكس بالعكس، فيجب إذن أن لا يقعد الشاب عن العمل إذا فشل في جهة ما، بل ليكن هذا الفشل مشجعاً إياه على إدراك النجاح في جهة أخرى، وإذا كان لي أن أختار مثلا واحداً مشهوراً تأييداً لقولي فأنني أجد ذلك في عمل اللورد ريدنج حاكم الهند.

يمكن أن يعترض هنا بأنه رجل من الجنس والدين اليهودي وعلى ذلك فمثاله ليس بالقياس الصحيح الذي تقاس به كفاءة ومقدرة شبان بريطانيا العظمى، ولكني لا أوافق على هذا التمييز، فإن الكفايات والقوى العقلية التي لليهود هي نفس الكفايات التي لنا تماماً ماعدا أنهم ينضجون مبكرين، وهذا البلوغ قبل الأوان يؤولونه إلى أنه ذكاء خاص للأعمال، وهذا غير صحيح.

فاللورد ريدنج بدأ حياته في أعمال البورصة حيث فشل كل الفشل، ولا نزاع في أن الاختبار كان سيجلب له قسطاً معقولا من النجاح ولكن كان من الواضح أن هذا الميدان ليس ميدان مقدرته الفائقة، لذلك تخلي

بشجاعة عن هذا العمل واشتغل بالمحاماة، وهناك تجلت مواهبه التي ضمنت له إيراداً وشهرة واسعة– خصوصاً في المسائل التجارية، ولقد ترك منافسيه منقسمين بشأنه بين إعجاب وإغضاب، ففي سنة واحدة ربح أربعين ألف ليرة إنجليزية، وفي هذا الدرب سار فوصل إذ حققت له شهرته وظيفة النائب العمومي.

ومع هذه المقدرة واتساع الشهرة فلم ينجح نجاحاً حقيقياً في مجلس العموم لعدم ميله واستعداده للحملات البرلمانية ولذا أسندت إليه وظيفة قاضي القضاة، ولقد أكسبته أخلاقه الشخصية السامية وشهرته في مركزه الجديد ذلك اللقب الرفيع ألا وهو شيخ القضاة العظيم.

وحسب اختباري الشخصي المحدود لا أوافق على ذلك فقد راقبته عن كثب في قضية كان ينظرها فلم يظهر لي أنه قاض عظيم، فقد فشل في استمالة المحلفين إليه، وقد أمرت محكمة الاستئناف بإعادة نظر الدعوى وأنتهى الأمر بنقض الحكم الصادر في القضية.

إن شيئاً كهذا ممكن وقوعه مع أي قاض، ولكن القاضي القوي يمكنه أن يضع حداً للإجراءات العقيمة التي لا نتيجة لها غير التأخير وكثرة المصاريف على المتقاضين الذين تورطوا بدون مناسبة في الدعوى.

على أن فرصته الصحيحة حانت عندما أرسل إلى الولايات المتحدة في زمن الحرب، فما من سفير حاز نفوذاً وحظوة عند الناس وعاد بنتائج باهرة كما عاد، فكسياسي ورجل قانون وأعمال سطع نوره

بقوة، وهكذا مرة أخرى منذ أيامه بالمحكمة التجاريةوجد الميدان الحقيقي لإظهار مواهبه.

ومن عالم القضاء انتقل إلى مركز ذي مسئولية عظمى في الهند، ومن الآن تسمع بعض الأصوات تحي نجاح الحاكم الجديد، ولكن من الحكمة أن ننتظر حتى يظهر ما إذا كان ذكاؤه واسع سيجد له لعبة ناجحة في بيئته الجديدة.

إن المغزى الذي يستخلص من مثل اللورد ريدنج ظاهر كل الظهور: لا تيأس إذا صادفك فشل في البداءة، بل ابحث عن عمل جديد يناسب مواهبك أكثر، ثم جاهد ولك الأمل الأكيد بأن في ميدان العمل متسعاً للجميع.

الصلابة

ما أحمقها! وما أحمق ذلك الرجل الذي يفاخر بها قائلاً: "يمكنك أن تقول ما تشاء ولكن لم أحول عن رأيي وظللت ثابتاً على أي حال".

إن هذه الملاحظة تقدم غالباً كملطف ممن حل به فشل فاضح، ولو تنبه للحقائق لرأى أن الثبات لا يلازم شيئاً في العالم- لا في مجرى الحوادث أو التاريخ أو الجو، ولا في المظهر العقلي لأي فرد من الأفراد.

إن الرجل الثابت أو بالحري الجامد يريد أن يطبق قاعدة واحدة في كل الظروف وإزاء كل التغيرات العالمية، وهذه الوجهة العقلية لا ريب خاطئة، فإن السير بمقتضاها خروج على كل رأي، وإطراح للاختبار، واعتبار المعرفة كأنها لا شيء قط.

فالفرد الذي يفاخر بثباته يعني بهذا أن الحقائق الراهنة لا قيمة لها إذا ما قورنت بشعوره السامي برجحان عقله.

على أن الطعن في الثبات لا يقصد به تحبيذ التقلب أو رفعه إلى درجة المثال الأعلى، فإن الفرد الذي يفتخر بعدم ثباته على حال –لغير ما سبب موجب، ولكن لمجرد هواه- لهو شخص أحمق كنظيره المعارض له. فالحياة في كلمة واحدة لا يمكن أن تعاش عيشة نظرية.

ودونك السياسيين فإنهم الفريسة المجسمة لنظرية الصلابة، أنهم

يمارسون فناً يتوقف نجاحه فوق كل شيء على إنهاز الفرص- وتهيئة العلاج المناسب لشتى الحوادث وتقلبات الظروف والأشخاص، ومع ذلك فالسياسي أكثر من أي شخص آخر يحاول أن يوفق بين ما يعمله اليوم وما قاله أمس، وهكذا تتحول سياسة أمة عظيمة غالباً في مجاري مغلوطة بسبب الرجوع لخطب سياسية قديمة، فأنهم (أي رجال السياسة) يخافون جداً ممن يقلب سجلاتهم الرسمية الماضية ليذكرهم بتصريحاتهم المدونة فيها.

على أني لا أشير بعدم الثبات كشيء حسن في ذاته، فإن السياسي الذي يؤمن بسياسة اقتصادية عامة -كحرية التجارة أو حمايتها- لا يغتفر له تغيير رأيه إلا تحت الظروف المتقلبة التي لا تقاوم في تقلبها، فمن الصواب أن يتباطأ حتى يحمله الدليل المقنع كل الإقناع على تغيير موقفه.

إن الثبات على مبدأ معين في الأعمال لهو غلطة فاحشة لسبب واحد صريح، فإن تقلب الأحوال في عالم التجارة بين صعود وهبوط ناموس لا مفر منه، فدولاب الأعمال الدائم الدوران قد يسرع أو يبطئ وفقاً لزيادة الإنتاج أو نقصه، ومن هذا يتضح أن السياسة الصحيحة في وقت ما قد تكون خطأ في وقت آخر.

فالرجل الذي يقول: "أنني ثابت ودائماً اشتري" أو ذاك الذي يجيبك: "لا يمكن أي فرد أن ينسب لي نقصاً في المبادئ، أنني دائماً أبيع"- كلاهما لا يدري ما يحصل له، وحديثهما يستحق أن يكون خبراً من أخبار الجرائد.

إن هذه الصلابة رمز للمخاطر، ولا شيء سوى مرونة الرأي يقود رجل الأعمال في طريق النجاح.

تقلدت مرة كرسي الرياسة في مصرف من المصارف كان قد أشرف على المرحلة الأخيرة من مراحل الاضمحلال الثقيل الخطير، فلم يكن به خيط واحد من خيوط الرجاء، ولذا كانت مأموريتي إن أكهرب الجسد حتى يتحرك، فبحثت هنا وهناك وفي كل جهة لأجد لي منفذاً كما يبحث المصارع عن مكان ضعيف عند خصمه المنازل له.

ومع إن زملائي المديرين الذين خدموا في مجلس الإدارة مدة من السنين كانوا رجال أعمال حاذقين ولكن ظهر لي أن المصرف قد فقد قوة على قبول أو إنشاء عمليات جديدة ولولا ذلك لما هبط إلى الحضيض الذي وصل إليه.

وعندما التأم مجلس الإدارة –تجمع الأعضاء قبل الجلسة حول مائدة الغداء– وبدأوا يسألونني: "أي مشروع غريب ستباغتنا به اليوم".

وفي الواقع كان مشروعي نوعاً من المباغتات، وهذا كان الانتقاد الوحيد ضده، ويجوز أني كنت مخطئاً في مفاجأة زملائي بالمشروعات المختلفة التي طرحتها أمامهم، ولكني برهنت على اني مصيب في المشروعات ذاتها.

ووجه الانتقاد بني في الحقيقة على نظرية الثبات القاتل لجميع المشروعات، فقد فرضت لو أن الفكرة طرأت عن إدماج هذا المصرف

بمصرف آخر لما تأخرت عن شراء المصرف الثاني، ولو فشلت هذه الفكرة في الأسبوع التالي فقد كنت أحبذ بكل قواي بيع مصرفنا إلى مصرف أكبر منه.

ولكن زملائي أجابوني قائلين: "أنك متقلب غير ثابت" فكان جوابي لهم: إن ما يحتاجه العمل هو الحياة والحركة بأي ثمن كان، وليس للبيع والشراء أو الثبات وعدمه دخل في ذلك.

إن الماليين غالباً معرضون إلى هذه التهمة: فخصمهم يقول عنهم– إن فلان كان يوم الأربعاء معضداً بكليته لذلك المشروع العظيم، وفي يوم الجمعة نسى كل شيء عنه وأخذ بمشروع آخر، هذا صحيح، ولكن بين يومي الأربعاء والجمعة تغير الطقس كل التغير، فهل يقال أن البارومتر متقلب وغير ثابت لأنه سجل تغييرات الطقس؟".

ومع ذلك فرجال الأعمال الذين يتمشون مع الواقع المؤدي للنجاح بدلا من الصلابة فالفشل يجب أن يتأكدوا أنهم سوف يدفعون عقوبة عن ذلك، أو على الأقل إذا أرادوا اجتناب هذه العقوبة لسلوكهم طريق الصواب فيلزمهم أن يتخذوا أشد الاحتياطات لذلك.

وجل ما يعاقب رجل الأعمال الناجح هو انتقاد خصومه له الذين يصمونه بأنه يسير حسب قواعده الخاصة أو بالحري حسب هواه، مع أنهم لا ينكرون عليه أنه يعمل بقوة وبأس.

والحقيقة أنه لا يوجد أسلوب آخر للنجاح فإن مرونة الرأي التي

يصفها خصومه بالتقلب وعدم الثبات– لهي جوهر النجاح، ولكن لا تنس أن الانتقاد هادم ومضر، ويوجد طريقان لمحاربته: طريق الخطأ وطريق الصواب، فطريق الخطأ هو الالتجاء للنفاق والكذب، بأن يدعي الثبات والحال ليس كذلك.

وطريق الصواب هي ممازحة خصومه وإدخال المسرة إلى قلوبهم كي بذلك يستميلهم إليه ويحملهم على التسامح في سلوكه بحسب خطته التي يصفونها بعدم الثبات والتقلب وبذلك يمكنه الحرص على الأصدقاء وإن اختلفت وسائل العمل، وهذا اسمى فن في السياسة المالية.

فأولئك الذين بسبب شيء من سوء الحظ في أخلاقهم أو تربيتهم لا قدرة لهم على إتباع هذه النظرية يجب أن يستعدوا لمواجهة التعبير الذي ينالهم بسبب نجاحهم عن طريق التحوير في آرائهم طبقاً لمقتضي الحال.

أنهم لا يلجؤون إلى النفاق إذا كانوا حكماء ليس لأن هذه العادة تضر باعتبارهم في نظر قرنائهم وجيرانهم، بل بالعكس أنها ترفع سمعتهم– ولكن لأنها تهدم احترامهم الذاتي عند أنفسهم.

إنهم يرون أنهم كانوا مصيبين في السير حسبما اقتضاه الحال وبالتالي النجاح، وإن كان إجماع الجمهور على أنهم مخطئون.

التعصب

إن أعم الرذائل وربما أجسمها هي رزيلة التعصب، فإنها شيء يرضع مع لبن الأم ثم ينمو مع الحياة تغذيه العناصر المحيطة بالشباب، وما من سبيل للتملص من هذه الرذيلة –إذا أمكن– سوى اختبار الحياة والتفكير العميق الهادئ.

إن التعصب نقيصة بمعنى الكلمة: فإن الهدم والتخريب الذي ينتجه لأبلغ أثراً من شرور النقائص الأخرى، أنه قاتل للرأي ومدمر في تأثيره على العقل، أنه ظاهرة مرضية تنبئ عن قصر نظر الإنسان في الحياة وضيق دائرة فكره.إن الذي يقدر أن يتعلم كيف يتخلص من هذا الداء يكسر حلقة من الحديد مقيدة لعقله، ومع ذلك فكلنا نأتي إلى عالم الأشغال في بداءة الحياة وهذه الحلقة تحيط هيا كلنا.

فالتعصب داء دفين فينا وإن كنا لا نشعر به أحياناً، أنني أكتب هذا من واقع اختباري، فقد هذبت كابن قسيس كنيسة إسكتلندا فتركت جامعة ادنبرج شاباً كيما أتولى وظيفة قسيس بكندا، فالمذهب المشيخي كان المذهب الذي ربيت في حداثتي حسب مبادئه، وللأن ما زلت أشعر في داخلي بذلك التعصب الذي لا يمكن أن أدافع عنه عقلياً ضد مبادئ المذهب الذي تعتنقه وست منستر (أي المذهب الأسقفي).

على أن كثرة التفكير والاختبار عدلا آرائي بخصوص المسائل الدينية: فإن كل ما يقوم بنفسي من الميل الآن هو أن أكون مدافعاً عن كنيسة إسكتلندا إذا ما هاجمتها شيعة أخرى- في مبادئها أو نظامها.

تلك هي العواطف التي تكتنف الشباب وتتملكه منذ حداثته، وهي عواطف قوية سواء تشكلت بشكل ديني أو سياسي أو طائفي، ومن المحتمل أن الاعتقاد الديني في شكل معين هو أكثر هذه الأشكال تأثيراً، ويمكن القول أنه لولا تمرين العقل وتهذيبه الخفي على مر الدهور المتعاقبة لما استطاع فرد أو جماعة أن تبقى على قيد الحياة.

والآن وقد بلغ الإنسان درجة العقل الاجتماعي فقد صار التعصب ضعفاً أكثر منه قوة.

إن أعظم تعصب في الحياة الاجتماعية هو التعصب ضد الأشخاص لا ضد شعب معين نرمقه بعين الاشمئزاز أو الكراهة- ضد أفراد لم نرهم رأي العين ولا نعرف شيئاً عن حقيقتهم.

فإن زيداً بمجرد ما يذكر اسم عمرو لبكر تجد الأخير يقول "أف أني أكره هذا الرجل" فيسأله زيد "هل قابلته مرة في حياتك؟ فيجيبه كلا، ولست أريد أن أقابله، على أني أعرف كثيراً عنه". وماذا تعرف؟ إنني أعرف أن خالداً قال لعلي وهذا قال لي أنه (أي عمرو) كان دائماً سيء الفعال رديء الخصال. بعد ذلك ببضعة أسابيع يتفق أن يجلس بكر تجاه عمرو على مائدة واحدة للغداء فيجده من أحسن الناس وألطفهم في الكلام والمعاملة، ومن

ذلك الحسين ينطلق مردداً الثناء عليه، وهكذا ينقض الأمر الواقع ذلك التعصب الشخصي على أنها فلتة طبيعية غريبة ليس من السهل تعليلها وهي إن الرجال ذوي الشخصيات الساحرة –هذي التي تجعلهم أصدقاء صميمين أو أعداء إلداء– معرضون أكثر من سواهم لذلك الحكم الخطأ، والسبب في ذلك قلة المعرفة أو بالحري التعصب الممقوت عند من يحكمون عليهم.

وهاك صورة أخرى لهذا الداء في عالم الأشغال، فإن رجال العمل تقوم في نفوسهم كراهة غير معقولة لنوع من المعاملات المالية أو التجارية: فقد تعرض عليهم فرصة نادرة يمكن أن تعود عليهم بربح جزيل، ولكن تكون الحجة الظاهرة في رفضهم إياها أنهم لم يتعودوا الاشتغال بهذا النوع من المعاملات، والسبب الحقيقي في هذا الرفض هو أنهم محكومون بالأوساط التي تحيطهم وليس لهم من الشجاعة الأدبية أو القوة ما يحررهم من هذه القيود، ولو أن الأدلة والحجج كلها تكون قائمة على أن من مصلحتهم انتهاز هذه الفرص، إن عقولهم صارت معصوبة بأربطة العادات والتقاليد.

والنوع الرابع – وربما كان أشد نوع من أنواع التعصب خارج دائرة الدين– هو التعصب السياسي، فالناس يعتنقون المذاهب السياسية، ومع ما يعتري العالم من الهدم والتجديد حولهم فإنهم لا يتحولون عن آرائهم الأصلية، فالمتطرف من الأحرار يقول لك أن المحافظ جامد لا يتغير، بينما المحافظ يعتقد أن الأول منبثق من مصدر الشر.

وبين هذين المذهبين المتعادين تضيع الوسيلة الحقيقية التي تؤدي للسلام القومي والفلاح والأمان، وذلك بفعل أولئك الذين يفضلون التحزب على تلك الدروس الصادقة التي لقنتهم إياها الحقيقة الناصعة.

والمثل الفاضح عن سواه لهذا التحزب الغائر هو مثل ذلك الرجل الذي تخطى الحدود الحزبية وأعطى لنفسه حرية الكلام فصار ينتقد جهة من الجهات، ولكن الغريب في أمره أنه لا ينضم إلى الجهة الأخرى.

إن الربح من هذا التحزب هو المحافظة على التقاليد، أما الخسارة التي تنال الفراد أو الأمم منه فهي عجزهم عن التوفيق في حياتهم ومقتضيات الظروف. والتعصب وصمة في جبين الشباب والعصر في آن واحد، فالشباب يساء إليه بسبب تربيته وتهذيبه، والعصر بسبب عدم القدرة على مجاراة أحوال العالم المتغير، ولكن كلا الشباب والعصر يستطيع أن يناضل بقوة الإرادة البشرية ضد هذه الميول المتعصبة.

فالشباب يقدر أن يقول:

"يجب أن أنسى أنني ربيت لأكون أسكوتلندياًومشيخياً في ديني وهكذا متعصباً ضد كل الكاثوليك أو اليهود، ها هو العالم مفتوح أمامي، فعلي أن أكون اعتقادي الشخصي وأحكم على الرجال والأديان في كل مسألة على حدتها"، إن الوجدان سيحاول المقاومة، ولكن هذه المحاولة يجب أن يصدها العقل والإرادة.

وكذا يمكن للعصر أن يقول:

"إن كل ما حدث في الماضي هو جزء من اختباري وبالتالي جزء مني، فقد استخلصت بضع نتائج مما شاهدته ولكن المقدمات التي استخلصت منها نتائجي دائمة التغيير، فإذا أنا تنحيت عن قبول عوالم جديدة وامتنعت عن إدخالها ضمن اختباراتي لأن ماضي يرفضها باعتبار أنها غير سارة غير صحيحة فأنني أكون إذن مطبوعاً بطابع التعصب الممقوت المنافي لحقيقة الواقع، ومتى فقدت الاتصال بالعالم فالنتيجة المحتومة هي إما التقهقر وإما الشقاء".

فبقدر ما يسرع الشاب للتخلص من التعصب بقدر ما يكون نجاحه سريعاً. وبقدر ما يشتد في نضاله ضد الميول المخلفة عن الماضي والتي تتجمع حوله لتسد طريق العمل الحر أمام فكرة بقدر ما تطول أيام السعادة والنجاح وحياة العمل المنتج.

إن التعصب مزيج من الكبرياء وحب الذات ولا يمكن إذن لرجل متعصب أن يكون سعيداً.

الهدوء

كختام لمباحثي السابقة أكتب هذا المقال على صفحة التفاؤل لا التشاؤم، فبعد العاصفة يأتي السكون أو الهدوء. فما هو ذلك الهدوء لرجل الأعمال المختبر؟ أنه الغاية التي يكرس لها حياته ذلك الشاب الطامح الحائر ليصل في منتصف العمل إلى السعادة ويتمتع بطعمها الشهي وسط نجاحه المحقق.

إن الشاب وقت الأمل، والشيخوخة وقت التطلع للوراء لمشاهدة مسرات الماضي وفعاله — الوقت الذي لا يعتد فيه بالنجاح أو بالفشل، وبين الأثنين تقف الكهولة الناجحة فتراها هادئة لا بسبب السن أو الفشل بل لأنها ترمز لذلك النجاح المتين الذي يساعد الإنسان على اقتحام دوائر الأعمال الأخرى بدون خوف أو وجل، فهناك ميادين جديدة تدعوه إليها: الفن والآداب والخدمة العامة، فالنجاح قد تم له ومن الخطأ أن لا يتمم سعادته أيضاً.

إن النجاح في منتصف العمل لهو المثل الأعلى للرجال العمليين، ولقد حاولت أن أرسم الطريق التي تؤدي بالشاب إلى النجاح إذا كان ثابتاً في عزمه، فالأشغال المالية والتجارية والصناعية في حالتها الحاضرة مفتوحة الأبواب أمام مواهب أي فرد كان، ونقص التعليم بمعناه الرسمي ليس بعائق للتقدم، فكل شاب له فرصته، ولكن هل له أن يمارس العمل

والاقتصاد والاعتدال وأن يتجنب الغطرسة والفزع ويعرف كيف يواجه الكساد بقلبي قوي؟ وحتى إذا كان نابغة فهل يتعلم أن لا يحلق في السماء بأجنحة مقيدة؟

إن سر القوة يتلخص في الأسلوب الذي ينقل نار الشباب ويفرغها في العرفة الاختبارية، وفي مقالاتي السابقة أشرت بغاية الإيجاز إلى هذه المعرفة، لقد كان لي الشباب مرة والآن لي الاختبار، واعتقادي أن الشاب يقدر أن يعمل أي شيء إذا كانت رغبته في النجاح قوية لكبح جماح الرغبات الأخرى.

وأعتقد أيضاً أن قليلاً من مختلف التجارب يعلم الشاب كيف يجتنب الشراك المالية التي تتربص أقوى النفوس الجسورة – كما اختبرت ذلك بنفسي.

ولكن فوق كل هذا تقف السعادة كالمطلب الأخير الذي يناضل الإنسان لبلوغه، وهذه السعادة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد مجهود طويل، فهي حالة مادية معنوية في آن واحد، أنها نتيجة إتمام العمل والإحساس بالهدوء – فلذتها في إنجاز العمل ولكن ثمرتها في الشعور الصادق بالسعادة.

وكما يقول الشاعر: إن الإنسان قد يفوق زميله في الثروة أو في الحرب، ولكن ما يدرينا أيهما يكون أنعم حالا وأهدأ بالا في المستقبل؟

إنه بسبب إغفال هذه النظرية الشعرية يخطئ الكثيرون: فقد

يتتبعون نظريات النجاح حتى يصلوا إليه، ولكنهم يضيعون السعادة لأنهم لا يقدرون أن يقفوا عند حد، إن السعادة زهرة جميلة زاهية ولكن قد يكون ثمرها مر المذاق إذا لم يعرف الإنسان متى يعتزل العمل.

يقول القدماء في حكمهم: "لا تدعُ أحداً سعيداً إلا بعد موته"، وهذا القول مستمد من الموت الشنيع الذي حل بأحد الملوك العظام.

وأنا أريد أن أقول: لا تدع أحداً ناجحاً حتى يعتزل عمله وله شيء من المال يكفيه أن يعيش باقي حياته عيشة راضية، فإن الرجل الذي يستمر في عمله حتى يتجاوز هذا الحد إنما يدخر تعباً لنفسه وخيبة لغيره.

إن النجاح في عالم المال هو امتياز الشبان، فالشاب الذي لم ينجح في ميدانه قبل أن تدركه الكهولة أبداً، يمكن أن يكون أمامه عمل شريف مثمر ولكنه لا يصل إلى علوه مطلقاً، فإنه يظل من سنة إلى أخرى يربح تارة كثيراً وتارة قليلاً بعد مجهود متعب لا ينقذه منه سوى الموت أو الشيخوخة.

ولست للكهول أكتب هذا بل للشبان، ونصيحتي لهم هي هذه: "أنجح صغيراً وأعتزل العمل صغيراً بقدر ما يمكنك".

إن الناجح الذي يستمر طويلا في عمله بعد أن يكون قد جمع ثروة كبيرة أو على الأقل مناسبة يكتب مصيره بحروف عريضة فوق صفحة التاريخ المالي، فإن الشاب لا يصل إلى غرضه إلا وقد تفوق في عمله وانطبع فيه كجزء من كيانه، وهذا ما يصعب التنازل عنه، إن تفوقه قد ذاع وشاع، فإذا جمع خمسين ألفاً من الجنيهات فلماذا لا يستمر في عمله

حتى يجمع نصف مليون؟ وإذا صار له نصف مليون فلماذا لا يسير في طريقه حتى يصير له ثلاثة ملايين؟ أنه لا يعوزه –كما يقول المخاتلون المحتالون– إلا أن يضاعف وسائل النجاح إلى مالا نهاية، فعنى العالم قواه ممكن حيازتها بغزارة من طريق استخدام الصفات التي أكتسبها بالألم والتي صارت عادة من عادات سروره، فما أتعس حظه أن يتخلى عن هذه الوسيلة لجمع المال! خصوصاً إذا كان ناضج الاختبار! فإنه يستحيل على مثله أن يفشل حيثما ينجح الفتى الصغير.

إن هذا خداع مسبوك ولكنه مغلوط المنطق: فالنجاح ليس وسيلة ممكن مضاعفاتها إلى ما لا نهاية في نفس ميدان العمل، فإن العقل الحاكم يفقد مرونته مع الوقت ويعجز عن تقدير قيمة الأشياء الحقيقية تحت الظروف المتقلبة، فانتصاره هنا لا يحققه النضال بقدر ما تحققه العادة، هذا هو الدور الذي يعقبه الانحطاط: إذ يبدأ الرأي يضل ويتوه من جراء ما يشبه عبادة الذات حيث يكون العامل السائد في المعاملات هو إرضاء النفس لا تحقيق ما يمكن تحقيقه من الأغراض، وهنالك من المال الوفير ما يسند هذا الغرور إلى حين ومن المملقين والمداهنين ما يشجع هذا الضلال.

إن تاريخ نابليون لم يكتب عبثاً، فهنا ترى عقلاً من الدرجة الأول يسير في طريق الفساد العقلي الذي طوح به من نجاح باهر في مقتبل العمر إلى نكبة تامة في منتصف الحياة، فالأمل الوحيد لكل من يرى نفسه نابليون زمانه في عالم المال هو أن يعتزل قبل أن يدركه هذه الغرور.

ولكن ماذا يعمل ذلك الرجل الذي يتقاعد عن العمل مبكراً؟ فإن شيئاً من النشاط أن يملأ فراغ حياته، والجواب على هذا السؤال تجده في استبدال عمله بعمل آخر، وقد يرى البعض أن الرياضة أو مزاولة فن من الفنون أو علم من العلوم يمكن أن يقنع هؤلاء الرجال، ولكن هذا يجب أن يكون الاستثناء – فإن كثيراً من الخدمات العامة تتطلب أمثال هؤلاء المجربين، ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، فالسياسة والصحافة وإدارة اللجان الخاصة بالمعاهد الخيرية كلها تتطلب نفس الكفاءات ونفس الاختبارات التي تلزم لرجل الأعمال الناجح، والخلاف الوحيد بينهما إن هذه الأعمال ليست هكذا شاقة إذ يندر أن تكون مسألة حياة أو موت عند المشتغل بها نظراً للإيراد المضمون الثابت الذي صار له.

وفضلا عن ذلك فمن الوجهة الاجتماعية تستفيد الأمة منهم فائدة عظمى، إذ يكون تحت تصرفها خدمات رجال ذوي كفاءة واختبار ممتازين: فإن الذي تحتاجه الحياة العامة فوق كل شيء هم الرجال الذين لهم معرفة بالحقائق.

وقد كانت طائفة الملاك في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تؤدي هذه المأمورية للأمة نظراً لفراغ الوقت لديهم، وبالرغم من ضيق معارفهم على نوع ما وحبهم لذواتهم فقد أدوا أعمالهم حسناً ولكنهم كطائفة قائمة بذاتها كان ظلهم يتوارى قبل الحرب، ثم جاءت الحرب فكادت تلاشيهم.

إن نظريات القرن العشرين الرحيبة فيما يختص بالصناعة والتجارة والاقتصاد لا توافق هذا النوع من العقول بصفة خاصة، واليوم يجب أن تشاد سياسة بريطانيا العظمى على المعرفة بالأسواق وما يروج فيها من المصنوعات، وهنا يمكن رجل الأعمال الذي اعتزل عمله أن يتقدم للمساعدة، فإن الدأب على جمع المال بعد أن تنعدم الحاجة الشخصية لذلك نوع من الأنانية التي لا تجلب السعادة، وحياة كهذه على أدق تقدير يصعب الاعتراف بنجاحها ما دامت غير سعيدة.

إن رسالتي الأخيرة هي رسالة الأمل للشباب: تجرأ على كل شيء ولكن مع التحفظ، انكر ذاتك في كل أمر دون إعجاب، أمل في كل شيء بدون غطرسة – وأنت تصل لما تريد لو أنك حافظت على صفة الاعتدال.

عند ذاك يفتح أمامك –بكل تأكيد– باب النجاح فتمر منه إلى مقر السعادة الحقيقية.

الأخلاق وتأثيرها في الأمم

وقفت أمام مرآتها فأبصرت قوة الشباب تتدفق فوق جبينها، وماء الحياة يترقرق في عينها، والجمال البديع الرائع يتوج هامتها.. جالت بنظرها تتفقد مجموع كيانها، فشعرت أنها فتنة للعيون وسحر للألباب، تخطرت في غرفتها وهي تنظر إلى قامتها الهيفاء تارة، وتتأمل شعرها المنثور حول عنقها العاجي تارة أخرى- فازدادت اقتناعاً بفرط جمالها الذي لا يوصف.

أخيراً فكرت ثم فكرت، وبعد أن أطالت النظر في دقائق محاسنها- ألقت بنفسها فوق سريرها وهي تجهش بالبكاء حسرة وحرقة.

هدأت ثورة البكاء، فاستوت في سريرها وهي تقول: أراني جميلة بين الآنسات، وذات ثروة كبيرة يحسدني عليها الشبان والشابات، فلماذا إذن يكون حظي في الحياة الاجتماعية هكذا سيئاً؟ للآن لم يخطب ودي أي شاب كفوء سوي واحد فقط ظهر فجأة وسرعان ما غاب، وها أنا قد ناهزت الخامسة والعشرين من سني حياتي!

هكذا كانت تناجي نفسها، وما هي إلا لحظات حتى سقطت في غيبوبة النوم، فإذا بها ترى الشاب قريباً منها، ألقته بنظرة حادة فلم يلتفت إليها، سألته بحرارة عن أمره فلم يجبها، انتهرته في كبرياء وعظمة

بهذه اللهجة الجارحة: أمثلك يجهل أيها الشاب من أنا؟ وما أنا عليه من حسب ونسب ومال وجمال؟

عفواً سيدتي، ولكن.. كنت أفتش عن شيء آخر، هو تاج الحياة الفاخر، وإكليل الفتاة الباهر، وللأسف لم أعثر عليه عندكم، ولم ألمح رسمه بينكم.

قالت في عنف: أي شيء هذا؟

أجابها في حلم: الأخلاق، الأخلاق ..

قالت: عجباً، وهل هذه تعلو فوق شمائلي، فتطوح بحظي وتحطم آمالي؟ أنك واهم يا هذا، ثم مدت يدها إلى رواية بجوارها وهمت أن ترميه بها، فاستيقظت من سباتها مذعورة وهي تردد القول: الأخلاق، الأخلاق.

أيتها الفتاة، أنه شاب من عشاق الأخلاق فأعذريه، لا يريد أن يجاري العصر الذي لا يقدر الأخلاق حق قدرها، أنه لا يحفل بما هو كائن بين الناس بل بما يجب أن يكون.

وها أنا أكلمك عن الأخلاق –نيابة عنه– إن كنت تسمعين، ولقد اخترت الحديث معك أولا– لا لأنك تستحقين اللوم أكثر من أخيك الشاب المجرد من الأخلاق، ولكن لأن الضرر يحيق بك أكثر منه، ولأن أساس الإصلاح يرجى منك قبل أن يرجى منه.

ولئن كنت لا تسمعينا الآن –وهذا مما يؤسف له– فلعل الأثير يحمل إليك هذه الكلمات فتتدبريها.

والآن يا صديقي الشاب، انصت معي لنسمع ذلك الصوت المرنم، أنه رجل فاضل، على خلق كريم، وأنها سيدة كاملة محتشمة– أليست هذه نغمة حلوة؟ ولكن ما رأيك في هذه الأغنية: الصيت أفضل من الغنى؟ هل يوجد من تشجيه هذه النغمة؟ وهل تطرب قلب صديقنا الغني؟

إن كثيرين لا ترضيهم هذه الحكمة، فنعيم الغنى لا يخفى ومظاهره لا تنسى.. ولكن رويدك أيها الهازئ بهذه الحقيقة، الضارب بها عرض الحائط، أتقدر أن تخبرني عن حالك بعد الفراغ من شهواتك، وبعد انقطاع تيار ملذاتك؟ سل مثل هؤلاء الناس عن رجوعهم للعقل والصواب، بل عند توديع الحياة وأباطيلها: أحقاً كانت حياتكم نعيماً مقيماً. وأوقاتكم سروراً مستديماً؟ – وأنت تسمع الجواب كلا.

تسمع منهم ذلك والدمع يقطر من عيونهم ندماً، يتمنون العودة للماضي، لإصلاح ما أفسدوه، وتقويم ما عوجوه. ولكن هيهات، فقد حانت الساعة، وغير ممكن للدهر أن يعود للوراء.

تسألني ما هي؟ ما الأخلاق قبل كل شيء؟ ما تعرفيها؟

أنها السماء اللامعة، والشمس الساطعة، الزهور في رائحتها الزكية، والمياه في خواصها الصافية النقية، الحياة في الإنسان والقوة للأبدان،

هي جمال الكائنات، والروح في هيولها الرباني، أنها الخالق في جماله وكماله! فعلى صورته خلقنا.

أهذه تحتاج إلى تعريف؟ أننا نمغطها حقها، ونصغر من شأنها إذا حاولنا تعريفها: فالنهار لا يحتاج إلى دليل، ولكن بوجه عام ما ماهيتها؟

هل الصدق من أركانها؟ ومناصرة الحق والعدل- مهما كانت الظروف ومهما اشتد الخصوم وقوى الأعداء؟ أمن أركانها الشفقة والمحبة، وإغاثة الضعيف والمسكين- ذلك الذي تقرأ الذل في عينيه، وتلمس البؤس مرسوماً على وجنتيه؟

وهل من الأخلاق أن نكره الغش والرياء، والجبن والكبرياء، والنجاسة والقباحة؟

إذا كان الأمر كذلك- أليست الأخلاق هي الدين بعينه المسطر في كتب الله؟ إذن ما أحوجنا إلى تفتيش هذه الكتب، ففيها حياة لنفوسنا.

قد يجوز النظر في موضوع الأخلاق من وجهة الأمر الواقع فيما يختص ببلادنا، فنبحث عما إذا كنا أقوياء في أخلاقنا أم ضعفاء، أغنياء أم فقراء، أنتقدم أم نتأخر — هذه وجهة نظر ولكنها ليست وجهتي، وقد يجوز البحث أيضاً في كيفية بناء الأخلاق، فتشخيص الداء، وتصف الدواء — ولكن هذا البحث أيضاً ليس من أغراضي.

إن الغرض الذي أرمي إليه هو شيء واحد: هو تأثير الأخلاق في

الأمم – أترتفع الأمم إذا ارتفعت أخلاقها، وتنحط إذا انحطت – وبعبارة أخرى أحقاً إن البر يرفع شأن الأمة وعار الشعوب الخطية؟

هذا هو موضوعي، فما الذي يعنيه الارتفاع قبل كل شيء؟

هل الارتفاع شيء مادي؟ أم هو صورة أدبية تتفاوت في درجاتها حتى تصل إلى ما يقال له المثل الأعلى؟

الواقع أنه هذا وذاك: فالحياة تتناول هاتين الصورتين، فقد ترى الارتفاع في شكله المادي: من حيث الثروة وقوتها، والعقول وتفوقها، والأجسام ومتانتها.

وقد تراه أيضاً في شكله المعنوي: من حيث النفس وكمالها، والروح وارتقائها – في العاطفة والإحساس والضمير والوجدان.

إن الارتفاع ما هو إلا التفوق في هذه الأشكال المختلفة، أنه الجمال في أتم معانيه، والمثل الأعلى في أكمل مبانيه.. والانحطاط بالطبع عكس الارتفاع في نفس الصور التي ذكرناها – في الماديات كما في الروحيات، أنه فقر في المال والبنين، في العقول وثمارها، والنفوس وآدابها، أنه السقوط التام في كل شيء.

والآن نعود إلى لب موضوعنا، وهو أن الأخلاق قمة شامخة تسمو الأمم بسموها؟ وإلى تلك الهوة السحيقة تنحدر الأمم بانحدار أخلاقها؟ هذا ما أحاول البحث فيه.

إن الإنسان هنا هو المقصود بالذات، فلننظر إليه في عناصره الثلاثة ألا وهي: الجسم والعقل والنفس.

الجسم – سمعنا مراراً العقل السليم في الجسم السليم، ولكن ما مصدر هذه السلامة؟ أليست القوة الجسمية ثمرة من ثمار الفضيلة والأخلاق المستقيمة –كما قرأنا وسمعنا ورأينا واختبرنا أيضاً؟ فإذا كان الجسم قويا ألا يكون بالطبع عوناً على الجهاد في معترك الحياة لمن يريد أن يعمل لمصلحته أو لمصلحة بلاده.

أنظر إلى أولئك القائمين بمختلف المشروعات العظيمة والأعمال الشاقة الجسيمة، الجائبين البلاد طولا وعرضاً والراكبين البحار شرقاً وغرباً، بل انظر إلى أولئك الجنود في ساحات الوغي المندفعين بكل إقدام وشجاعة للذود عن حرمة بلادهم بماذا يستعين كل هؤلاء؟ أليس بقواهم الجسدية؟

ثم انظر للشعوب اليوم وهي تتسابق في الألعاب الأولمبية لتصل إلى تقوية أجسام أبنائهم وبالتالي عقولهم – لم يلتهبون شوقاً لإخراج ذلك النسل القوي؟ أليس لأن أبناءهم موضوع سرورهم وفخرهم، ومناط رجالهم وآمالهم، بهم يعتزون، وبقوتهم يحتمون؟

ولكن أيمكن أن تبقى هذه القوى الجسدية إذا انحدرت في مهاوي الشر والخطيئة؟ أو أن الحارس الأمين لها، والغذاء النافع لحياتها، هي تلك الأخلاق الطاهرة النقية؟

انظروا إلى كثيرين من الضعفاء ولا تسألوهم عن سرهم بل سلوا المستشفيات والأطباء، وهم يقررون لكم أن ضعفهم ناتج عن شرفيهم، أو عن وراثة شريرة، وربما عن عدوى ولكن في الغالب بسبب معاشرة شريرة أيضاً.

راجعوا التاريخ، بل أقرأوا الإصحاح الأول من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، وأنتم تحكمون مع المؤرخين بأن هذه الأخلاق المنحطة التي صورها بولس في ذلك الإصحاح هي التي أضعفت روما وهدمت عظمتها، أما أفنت قوتها، وامتصت دمها، وقطعت كل خيط من خيوط حياتها، فهوت إلى الحضيض وتمزقت شر ممزق؟

أليس هذا ما يقوله الحكيم سليمان في هذا الصدد: "والآن أيها الأبناء اسمعوا لي واصغوا لكلمات فمي، لا يمل قلبك إلى طرقها، ولا تشرد في مسالكه، لأنها طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء".

العقل – ثم ماذا تنتظرون من جسم سقيم؟ أليس العقل السقيم أيضاً.. وإذا كان العقل سقيما، فما هي ثمراته؟ ما هي العلوم التي يمكن أن يتعمق فيها؟ أين الذاكرة التي تختزن ما يلقى عليها وتستطيع أن ترجع إلى ما اختزنته عند الحاجة؟ وأين القوى المفكرة المبدعة المنشئة؟ أما وقف نموها بوقوف نمو الجسم؟

إن العناصر الحية التي يتغذى منها المخ قد نضب معينها، وشح نبعها، فجفت المجاري الموصلة لهناك، وهكذا تعطلت تلك الآلة

الدقيقة ألا وهي العقل، فقد عراها الصداء في جميع أجزائها وأصبح فتحها مستعصياً إن لم يكن مستحيلا.

إن الثروة اليوم لا ينظر إليها في المادة بقدر ما ينظر إليها في القرائح، فإذا خفت القرائح وطارت ألا تطير معها العلوم تلك التي تتطلب جهاداً عنيفاً مستمراً؟

فأي ثروة إذن تجد عند أمة هذا حال شبابها – إذا كانت القوة العلمية التي تستعين بها في جهادها الحيوي لا قيمة لها ولا وزن إذا ما قيست بثروة الأمم الناهضة التي ضربت بسهم صائب في بحار العلوم المختلفة، فوصلت إلى أغراضها أو كادت.

إن الجسم والعقل لمن أقوى الدعائم التي ترتكز عليها الأمم اليوم، ولكن تقف بجوارهما دعامة ارتكاز أشد وأمتن، وهي العنصر الروحي لا المادي، القوة المعنوية التي لها السلطان الأكبر، وهي النفس الخالدة!

وقد أوجزت الكلام عن تأثير الأخلاق في القوى الجسدية والعقلية، ولكن تأثيرها هما –أي تأثير الأخلاق على النفس– شديد مخيف، وإذا شئنا أن ندرك شيئاً من ذلك فلننظر إلى هذا التأثير في الكلام والأفكار والأعمال، مع الفرد والعائلة والأمة.

الكلام: قد نستهين بالكلام كثيراً، مع إن المسألة ليست هكذا بسيطة.

بأي لغة يتكلم ذلك الشاب الساقط؟ أي ألفاظ تمر على شفتيه؟ أما ساعدك الحظ مرة فحضرت حفلة من حفلات الإنس؟ أو ما مررت صدفة على حفلة كهذه – وسمعت ألفاظهم ولغتهم؟

إنها ليست ألفاظاً قبيحة ولا لغة ساقطة فقط، بل جارحة قاتلة: إنهم يقذفون حمما منتنة من نفوسهم المنتنة، إن ضمائرهم التي تنطوي على الخزي والعار لا تنضح سوى الخزي والعار، إن الزرع المغروس في حبات قلوبهم لا ينبت إلا ثمره: إن شكوكا فشوك وإن فسادا ففساد، فما في القلب ينطق به اللسان.إن ارتقاء من هذه الناحية غير مستطاع، لماذا؟ لأن الفرد أو الأمة تتميز بلغتها، فتسمو في آدابها بسمو لغتها وتنحط في آدابها بانحطاط لغتها.

إنك تهدم يا هذا في ركن من أركان حضارة بلادك، أنك تعطل رقيها، وتشين سمعتها، أنك تمثلها أسوأ تمثيل بين مواطنيك الصادقين، وبين الأجانب أجمعين.

أرجوك أن تستيقظ وتلتفت لنفسك فإنك مريض مرضاً خطيراً، لو كان لأطباء النفوس سلطان عليك لأقصوك عن المجتمع وما سمحوا باختلاطكما معاً، فداؤك معد كالسل والسرطان وكل وباء قتال.

إنك للأسف خائن – كاللص والقاتل سواء بسواء، لا تغضب مني فالحقيقة أنك لا تؤتمن على الجلوس مع سيدة أو فتاة، فألفاظك تؤذيها وغالبا تعثرها، وقد تقضي على حياتها ومستقبلها كما يحصل كل يوم، وربما

تعدى الأمر إلى حياة خلفائها، إن هذه نتيجة مشينة، فيها من الخزي ما فيها.

الفكر– هذا عن الكلام فماذا عن الفكر؟

لننظر أولا إلى صاحب الأخلاق الحميدة، فيما يفكر يا ترى؟ أنه رجل صالح ففي صلاحه يفكر، أنه يتطلع في أنحاء بلاده ليرى ما ينقصها فيجاهد على قدر استعداده ليسد ذلك النقص، هذا يفكر في اختراع أو اكتشاف، والآخر في إقامة صناعة من الصناعات أو تجارة من التجارات، البعض يسعى في نشر العلم وإنشاء الكليات والجامعات، والبعض الآخر يجول محارباً للشر وقطع دابر المفسدات، هنا تجد من يفتش عن الضالين البائسين، وهناك نجد من يشيد ملجأ للأيتام أو دارا للعجزة والمعوزين، هذا يجود بماله وذاك بوقته.

إن أفكارهم تشتغل ليلا ونهاراً في كيفية رفع مستوى بلادهم، يريدون أن يتمتعوا بالحياة صحيحة سليمة طاهرة مستقيمة، إلى الكمال يتطلعون ففي هذا يفكرون.وعكس هذا انظر إلى ذلك المجدب في أخلاقه، المنحط في آدابه – أيحلم بغير شهواته، وفاسد تصوراته؟ أنه سكران بحب الأجنبية، ومحاسنها الشهية، على ركبتي دليله يريد أن ينام.

إن التفكير في الخير –حتى في أخطر المواقف وأحرجها– لا يخطر له على بال، ها هو شمشون قد نسى قومه وبلاده، ولم يذكر شيئاً عن جيشه ورفاقه، هناك على قدمي خليلته هدم حياته وبلاده، ألقى بنفسه بين مخالب الذل والعار بدلا من المجد والفخار، لم يفكر في

مواقع الشرف بل في مواقع الفضيحة، هكذا أسلم حياته للدعارة حتى أعمته وفقأت عينيه، وجعلته أضحوكة بين أعدائه، وخزياً للوطن وأبنائه.

وهنا لا أستطيع أن أنسى ذلك البطل الشجاع يوسف: فإنه أمام أجمل الغادات، وأرفع رأس بين السيدات، وقف يرتعب من شبح الخنا، لم يفكر إلا في الفرار من تلك الهاوية المظلمة، المرأة الفاتنة كانت ترميه بنبال من سحرها، فيغمض عينيه ليتقي نارها وشرها، تتودد له تارة فتقترب منه لتجذبه إليها وتضمه إلى حضنها، فينكمش في نفسه ويود لو انشقت الأرض واحتضنته، تتوعده تارة أخرى بسلطانها وبطشها، فيلجأ إلى صاحب السلطان والبطش الأعظم يلتمس منه العون ويطلب منه والخلاص.

وماذا كانت النتيجة في الحالتين؟ ارتفع يوسف وارتفعت معه أمته، وسقط شمشون وسقطت معه أمته.. هذا شيء عن الفكر، ولكن هناك أفكار متنوعة كثيرة أمام الأخلاق الشريرة: فكل فرد استعبد لرذيلة من الرذائل فكره منحصراً فيها، فهي معبودة الذي يسجد له صباحاً ومساء: في غايته يفكر، وفي أشواقه تشتغل ذاكرته وعقله.

العمل – ثم ماذا عن العمل؟

إن الأمر بسيط واضح، فكل فرد يحاول أن ينفذ ما فكر فيه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولكن ما صورة الشرير في عمله؟ لقد رأيناه قبيحاً في لفظه، قبيحاً في فكره، فهل هو قبيح في عمله؟

أنظر إليه وهو يكذب –مثلاً– أيمكن أن يكون إلا قبيحاً؟ أنني أحكم ضميرك أيها الكاذب ألا يشهد بذلك؟ عندما تنظر في مرآة ضميرك ألا ترى نفسك قبيحاً، وقبيحاً جداً؟

قد تحاول أمام الناس أن تخفي شكلك أو بالحري جريمتك، ولكن الآثار تدل عليك، "فما تفعلونه في الخفاء ينادي به على السطوح".

ثم انظر إليه وهو ينافق ويداري، وهو عار من أي شجاعة أدبية، لا فكر له ولا رأي، ولا صراحة ولا استقلال.وتأمله أيضاً في ضعف نفسه: وهو يتكبر ويتجبر على من هو أصغر منه، ويتضع للحضيض ويذل ويخشع إزاء من هو أكبر منه. وأخيراً أنظر إليه وهو منسكب في خلاعته انسكاباً، في قماره وسكره، وسفهه وبطره، بل في جميع تهتكاته المتنوعة.

ما قيمة هؤلاء الناس؟

إنني لا أسألك ما حكمك عليهم، فهم يحكمون على أنفسهم بالإعدام وينفذون الحكم على أنفسهم، إن الهلاك نصيبهم، وهكذا يستوفي العدل الإلهي حقه، فاجرة الخطية موت.

ولكن أسألك عن فائدتهم في المجتمع الإنساني، ألهم فائدة؟ أجل، أنهم يعملون ما يعمل العث والسوس: هذا ينخر في عظام الأمة، وذاك يقرض في خيوط حياتها، أنهم عثرات في طريق خيار الناس، شباك ومصائد للكثيرين والكثيرات من عباد الله الأمنين.

أولئك هم المفسدون المعطلون لحياة الأمم، إذ كلما تقدمت الأمة خطوة للأمام بفضل جهاد أبنائها العاملين أرجعوها خطوات للوراء بفضل جهودهم السلبية، بل بفضل جرائهم الشيطانية.

ننتقل الآن إلى كلمة إجمالية، وهي نتيجة التأثير الواقع على الفرد والعائلة والأمة – من طريق الأخلاق.

أنظر إلى صاحب الأخلاق القويمة، ماذا ترى؟ أنه رجل إصلاح وبناء، أنه يبني نفسه ويقودها إلى السلام وراحة الضمير، إن حياته سعيدة من كل وجه: فهو يتمتع بشباب نضير، وصحة قوية، تراه عاملا نشيطاً، فرحاً بثمر يديه، راضياً بما قسم إليه، متهللا في حياته الروحية، هادئاً في شئونه المادية، مؤمناً بالوعد الصريح القائل "توبوا وارجعوا لتمحي خطايا كم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب"، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

تلك هي النتيجة الفردية فما هي النتيجة العائلية؟

أنه يؤسس مملكة صغيرة في عددها، كبيرة في مركزها قوية باتحادها، غنية بمحبتها، مباركة في أبنائها الصالحين، وأفرادها العاملين، أنهم يخطون جميعاً إلى الأمام، في أمن وسلام، يربحون أنفسهم، ويربحون بقدوتهم الأخرين.

وأفراد هذا شأنهم وعائلات هذا مقامها، لهم عز لبلادهم، وفخر لأمتهم، يزودونها بكل ما تحتاج إليه من قوة وثروة، وعلوم ومعارف،

ووطنية صادقة، وتضحية واجبة، أنهم عنوان الشعوب الكاملة، ومثال الحياة الصحيحة العاملة.

ذلك هو الوجه المنير للأخلاق في نتيجتها، فما هو الوجه المظلم.

إن الظلام مخيف أيها الشاب، فلماذا لا تخرج من ظلمتك؟ أنك شقي في حياتك، شقي بعد مماتك، تلك هي الحقيقة مهما حاولت أن تفتكر عن نفسك، أو مهما صورت للناس من أرمك، إن ضميرك إذا نام اليوم فلسوف يستيقظ غداً، سوف يرن الصوت الإلهي في داخلك قائلا: تعيش في دنياك تعيش في آخرتك: "لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم".. هذا هو شأنك.

أما من جهة العائلة فحرام للأسف أن تترأس عائلة، فإنك لا شك واصل بها إلى حالات اليأس والشقاء، إنك لا تصلح للقيادة، فالهزيمة مضمونة على يديك.

وحرام مرة أخرى أن تكون عضواً من أعضاء المجتمع الإنساني، فإنك محطم لوسائل التقدم والفلاح، مخرب لعوامل الرقي والإصلاح، أنك لا تؤتمن على شيء، ولا يركن إليك في شيء.

أنني لم أكلمك بعد عن نتائج الأمراض الجسدية، فهذه كلمك ويكلمك عنها غيري، فقط تأمل في كلمة عار التي تلحق بك، فأنك عار لنفسك، عار لعائلتك، عار لقومك.فليتك تتعقل وتتبصر في هذه المسؤوليات الخطيرة الجسيمة.

لقد هممت أن أقول: إن قطعك من الهيئة الاجتماعية (صلة الرحم) واجب عدلا، فإنك عدو لها، والشجرة التي لا تأتي بثمر تقطع وتلقى في النار، ولكن شعرت في نفسي بأسف شديد، لأن هذا تطبيق قاس لنظرية بقاء الأنسب، وسرعان ما تذكرت قول المسيح: "سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لأعنيكم، احسنوا إلى مبغضيكم".

الفهرس